مجلة العلوم العربية والإنسانية | E-ISSN : 1658-9602 |
جامعة القصيم، المجلد الالكتروني (١)، العدد (٣)، ص ٩٠٥-٩٥٧، (رجب ١٤٤٤ هـ/ يناير ٢٠٢٣) المجلد العام (١٦)

تناسب المعاني في الخطبة النبوية
(دراسة بلاغية)

د. تغريد عبد العزيز سعد المبارك
الأستاذ المشارك في قسم البلاغة والنقد - كلية اللغة العربية بجامعة أم القرى

(قدم للنشر في ١٤٤٣/٧/٢ هـ وقبل للنشر في ١٤٤٣/١٠/٢٨ هـ ونشر في ١٤٤٤/٧/١هـ)

ملخّص البحث:

تعد دراسة ترتيب المعاني في الخطب النبوية من الدراسات التناسبية التي تهتم بدراسة العلائق بين تلك المعاني، وتبرز صلة أجزاء الخطبة من ابتداء ووسط وانتهاء، وأثر التناسب في التماسك النصي، وهي تهدف إلى: الإسهام في الكشف عن وجه من وجوه البلاغة النبوية وأسباب بلوغها المرتبة العليا في الأداء والتأليف البشري، والوقوف على طريق انتظام المعاني في الخطبة النبوية، ومعرفة المنهج النبوي في رعاية نسق الخطبة بما يقتضيه موقفها ومقصودها. وخطة البحث تقع في ثلاثة مطالب وتمهيد، المطلب الأول: نموّ المعاني وانسجامها في الخطبة النبوية الواحدة. الثاني: وظائف المعاني في مطالع الخطب النبوية، ووجه ارتباطها بمقاصدها.الثالث: أثر الخواتيم في معاني الخطب النبوية، وصلتها بمطالعها، يسبقها تمهيد بعنوان: التناسب والخطبة النبوية.ومن أهم ما خلصت إليه الدراسة: أن التناسب والترتيب وثيق الصلة بالسياق وقرائن الأحوال؛ وبينهما علاقة تفاعلية، والسياق كليّ، والترتيب يتأثر به ويعبّر عن مكنوناته ودلالاته عبر منظومة متكاملة ومنهج معين. وأن بناء الخطبة يقوم على الاستهلال والعرض والخاتمة، وقد يُحذف أحد أجزاء الخطبة أو يُطوى من المقدمة أو الخاتمة؛ إذا كان هناك ما يدل عليه. وأن لمطلع الخطبة النبوية وظائف تتصل بوجه من

الوجوه بمقصود الخطبة النبوية ؛ غالبا تمهّد له أو تُجمل معانيه أو تشير إليه، وهي تؤدي وظائفها منخرطة غير معزولة عن سياق الخطبة ونسقها. وأن لخواتيم الخطبة النبوية أثر نفسي على المتلقي من ترسيخ المعنى وتركيزه، وغالبا تؤكد معنى سابقا وتؤسس معنى جديدا، ومعانيها تعود على مطلع الخطبة وتنطبق عليها في انسجام تام مع نسق بقية أجزاء القول في الخطبة.

الكلمات المفتاحية : بلاغة - بلاغة نبوية -خطبة – معاني الخطبة - تناسب – ترتيب .

Coordination of meanings in the prophetic sermons (rhetorical study)

DR. Taghreed abdul aziz saad almubarak
Associate Professor, Department of Rhetoric and Criticism, Faculty of Arabic Language, Umm Al-Qura University
Received on 2-7-1443 AH Accepted on 28-10-1443 AH Published on 1-7-1444 AH

Abstract:

study that is concerned with the study of the relation between those meanings, and highlights the link between the parts of the sermon from the beginning, the middle and the end, and the effect of proportionality in the textual cohesion, and aims to: contribute to the detection of one aspect of prophetic rhetoric and the reasons for reaching the highest level in human performance and authership, to find out the regularity of meanings in the prophetic sermon, and to know the prophetic approach in the care of the pattern of the sermon as required by its stand and its purpose.

The research plan falls into three requirement and a preface, the first requirement: the growth of meanings and their harmony in the one prophetic sermon. Second: The functions of meanings in the beginning of prophetic speeches, and the shape(FACE?) of their association with their purpose.

The third is the effect of the epilogue on the meanings of prophetic speeches, and their connection to prologue, preceded by a preface entitled Proportionality and Prophetic Speech. The study's most important findings include:

Proportionality and arrangement are closely related to context and case evidence; they have an interactive relationship, the overall context, and the arrangement is influenced by it and its mechanics and connotations are expressed through an integrated system and a particular approach.

key words: Eloquence - Prophetic rhetoric - sermon - layout - fit.

المقدمة:

الحمد لله والصلاة على خير عباد الله، المبلغ الأمين محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه وسلم، وبعد:

فتعد دراسة تناسب المعاني في الخطب النبوية من الدراسات التي تبرز أثر التعالق بين المعاني، وهي دراسة تهتم بالصلات بين أجزاء الخطبة النبوية؛ فتظهر أثر الترابط والانسجام الذي يعدّ من أبرز سمات الخطبة النبوية، وتسهم في فقه المعنى، كما أنها دراسة تضع اليد على الخطبة ووظائف المعاني فيها من المطلع إلى الوسط فالخاتمة، وتسهم في بيان أثر التناسب في التماسك النصي .

أسباب دراسة الموضوع :

-هذه الدراسة تندرج ضمن الدراسات السياقية التي تهتم بلغة النص وأنواع الخطاب، والدرس البلاغي مفتقر إلى مثلها.

-إن معرفة علل ترتيب المعاني في الخطبة النبوية، وصلة تلك المعاني بمقصودها، والإحاطة بالموقف العام للخطبة يسهم في فقه معناها،ويكشف عن وجه من وجوه البلاغة العالية عند المصطفى ﷺ.

-إن النظر في أجزاء الخطبة من المطلع والوسط والخاتمة، كيف اتحدت تلك الأجزاء وتماسكت، وكيف اتّسقت معانيها وانسجمت، وكيف تناسق بناؤها واتحد، ثم كيف جاءت على نظام واحد، وكيف تبلورت لتحقيق المقصود الأعظم فيها؛ من الدراسات التي تحقق معنى انسجام النص وتماسكه، والدرس البلاغي بحاجة إلى مثلها.

-إن المكتبة العربية البلاغية مفتقرة إلى الدراسات البلاغية التطبيقية على الخطب النبوية.

أهداف دراسة الموضوع:

- الكشف عن وجه من وجوه البلاغة النبوية، وأسباب بلوغه المرتبة العليا في الأداء والتأليف البشري.

- الوقوف على طريق انتظام المعاني في الخطبة النبوية بتحديد أجزائها ووظائفها وربطها بالمقصود الأعظم للخطبة.

- معرفة المنهج النبوي في رعاية نسق الخطبة بما يقتضيه موقفها ومقصودها، مع تأمل مستويات الانسجام والترابط بين المعاني، وما يقوم عليه من الظواهر البيانية والجمالية.

منهج البحث وحدوده :

تقوم الدراسة على المنهج التأويلي القائم على الاجتهاد في فهم الخطاب النبوي وفق ضوابط أصولية؛ تعين وجوه النظر البلاغي في المنهج البياني على كشف تلك المعاني وسبرها، وما يتعلق بها من سياقات مقامية، ومستويات بيانية، مع استخراج الكلّيات الضابطة للجزئيات، ومعرفة المقاصد والأغراض، والابتداءات والنهايات، والعلائق المتعلقة بكل.

وابتدأت الدراسة بمطلب: نمو المعاني في الخطبة الواحدة كاملة؛ لأن النظر في المعاني كاملة يبيّن أجزاء القول فيها، ويحدد مواضع الابتداء، ومفاصل الانتهاء، ويكشف عن المقاصد والغايات .

أما حدوده: جمعت الباحثة اثنتين وخمسين خطبة من الصحاح والأسانيد، وقامت بالنظر فيها وتفحّصها وتدبّرها، ولضيق المقام انتخبت خطبتين فقط للدراسة، الأولى: في الحث على الصدقة، والأخرى في ذكر صفة الدنيا؛ وذلك لأنهما من الخطب الطويلة التي تعطي مجالا أرحب لتأمّل المعاني وما بينها من صلات ووشائج .

وهي دراسة تفتح الأفق أمام الطلاب لسبر أغوار التناسب في الخطبة النبوية ؛ إذ باب الخطب واسع ومفتقر إلى دراسات تناسبية ؛ تُظهر اللحمة والعلائق بين الأجزاء ، وتُبرز المعاني الكلية ومضامينها الجزئية وتُركّز على المقاصد والغايات ؛ لاستبصار سير معاقد المعاني وتحقيقها للانسجام في الخطبة.

مشكلة البحث وتساؤلاته وفروضه:

عناصر الكلام في الخطبة مقدمة وعرض وخاتمة ، وتكمن مشكلة البحث في إجلاء علاقة هذه الأجزاء ببعضها ، وبيان الوظائف التي يقوم بها كل جزء للوصول إلى الكليّات التي تسعى لتحقيق المقصود الأعظم في الخطبة.

ويندرج تحت هذا المعنى عدة تساؤلات منها :

-ما طبيعة المعاني الكليّة في الخطبة النبوية؟ وما مسارات المعاني الجزئية المندرجة تحتها ؟

-كيف دارت المعاني الكليّة حول المحور الرئيس الذي هو مقصود الخطبة لإبرازه وتحقيقه ؟

-ما هي وظائف المعاني في المقدمات والمطالع في الخطبة النبوية؟ وهل هي مرتبطة بمقصود الخطبة بوجه من الوجوه؟

-ما الأثر النفسي الذي تتركه معاني الخطبة في النفوس ، وكيف أسهمت خواتيم الخطبة في ترسيخ وتعزيز المعنى في الصدور؟

-هل تعود الخواتيم على المطالع في الخطبة النبوية بوجه من الوجوه؟ وهل المطالع ذات صلة بالخواتيم؟

-كيف تشكّلت أجزاء القول في الخطبة؟ وماطبيعة الانتقال بين العناصر المكوّنة للخطبة؟

-هل يشترط في كل خطبة وجود تلك العناصر الثلاثة، أم من الممكن أن يطوى أحدها؟

خطة البحث :

التمهيد: التناسب والخطبة النبوية.

المطلب الأول: نموّ المعاني وانسجامها في الخطبة النبوية الواحدة.

المطلب الثاني: وظائف المعاني في مطالع الخطب النبوية، ووجه ارتباطها بمقاصدها.

المطلب الثالث: أثر خواتيم الخطب النبوية، وصلتها بمطالعها.

التمهي

التناسب والخطبة النبوية

حضت المناسبة على اهتمام النقّاد، وكانت اللفظة محل نظرهم ونظر الشعراء، فلا تقرن إلا مع لِفقها، ولا تجاور إلا أختها،[(١)] وفي هذا بيان على أن المناسبة كانت قائمة في ذواتهم، ولعل وقوف الأعرابي[(٢)] على خطإٍ في آية سمعها من قارئ وتنبّهه له -

(١) يرجع في قصص الشعراء ونقدهم إلى المصادر مثل: العسكري، كتاب الصناعتين،الكتابة والشعر، تحقيق: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم صـ١٤٢- ١٤٦،بدون ط، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م، المكتبة العصرية /صيدا – بيروت. وابن الأثير، كتاب المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد ٢/٢٧٦-٢٧٨،بدون ط، ١٤١٦هـ-١٩٩٥م،المكتبة العصرية /صيدا- بيروت.

(٢) "حكي أن أعرابيا سمع قارئا يقرأ:فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله غفور رحيم ، ولم يكن يقرأ القرآن ،فقال :إن كان هذا كلام الله فلا يقول كذا ،الحكيم لا يذكر الغفران عند الزلل لأنه إغراء عليه (السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر،الإتقان في علوم القرآن، قدّم له :محمد شريف سكر السيوطي ٢/٢٨٠،راجعه: مصطفى القصاص،ط٢ ،١٤١٦هـ-١٩٩٦م ، دار إحياء العلوم –بيروت /مكتبة المعارف – الرياض).

ولم يكن قد قرأ القرآن وقتها - فيه دليل على أن التناسب مطلب من مطالب السليقة العربية، وأصل في التأليف القويم، وعمدة في تحقيق المقاصد.

ارتبط التناسب بمعناه الواسع بالقرآن الكريم، وهذا الارتباط يضرب بجذوره إلى أزمنة بعيدة،[١] ولعل في وصف عمر بن الخطاب لشعر زهير حين قال :"كان لا يعاظل بين الكلام"[٢] ما يشي بمعنى التناسب والترتيب من حيث عدم إدخال الكلام بعضه على بعض، بمعنى: عدم إدخال ما ليس من جنس الكلام بعضه على بعض، وهذا أصل عظيم في باب التناسب .

وأشار الإمام الباقلاني(ت٤٠٣) إلى التناسب حين قال: "واعلم أن هذا علم شريف المحل، عظيم المكان، قليل الطلاب ...وهو أدق من السحر، وأهول من البحر، وأعجب من الشعر، وكيف لا يكون كذلك وأنت تحسب أن وضع الصبح في موضع الفجر يحسن في كل كلام؛ إلا أن يكون شعرا، أو سجعا، وليس كذلك، فإن إحدى اللفظتين قد تنفر في موضع، وتزل عن مكان لا تزل عنه اللفظة الأخرى، بل تتمكن فيه وتضرب بجرانها وتراها في مظانها، وتجدها فيه غير منازعة إلى أوطانها وتجد الأخرى - لو وضعت موضعها - في محل نفار، ومرمى شراد، ونابية عن استقرار."[٣] فأهمية التناسب تكشفها عبارة: " أدق من السحر، وأهول من البحر" فالدقة إشارة

---

(١) عن حذيفة بن اليمان قال صليت مع رسول الله ﷺ ليلة من رمضان في حجرة من جريد النخل قال:فقام فكبر فقال: الله أكبر ذو الجبروت والملكوت وذو الكبرياء والعظمة، ثم افتتح البقرة، فقرأ، فقلت: يبلغ رأس المائة، ثم قلت: يبلغ رأس المائتين، قال: ثم افتتح آل عمران فقرأها، ثم افتتح النساء فقرأها ..."(النسيسابوري، المستدرك على الصحيحين، كتاب الوتر، رقم الحديث (١٢٠١) من كتاب صلاة التطوع ٤٦٧/١).

(٢) الجمحي، محمد بن سلام، طبقات فحول الشعراء، محمود شاكر ٦٣/١ بدون ط،بدون ت، مطبعة المدني/ القاهرة.

(٣) الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب، إعجاز القرآن، قدّم له وشرحه وعلق عليه:محمد شريف سكر صـ ٢٤٤ ط٣ =

على اللطف الذي لا يظهر إلا لمتدبر، والهول بيان لثراء تلك المعاني التي تظهر بين العلاقات والوشائج .

وعرّف الخطيب القزويني (ت٧٣٩) مراعاة النظير بقوله : "وتسمى التناسب، والائتلاف والتوفيق أيضا، وهي أن يجمع في الكلام بين أمر وما يناسبه لا بالتضاد ."[١] فكانت بداية التقعيد للتناسب .

ووضع الإمام البقاعي (ت٨٨٥هـ)تعريفا للتناسب وسمّاه علما فقال : "علم تعرف منه علل الترتيب، وموضوعه أجزاء الشيء المطلوب علم مناسبته من حيث الترتيب." [٢] ومعنى كلامه أنه علم كلي ثابت، يتم من خلاله إدراك الجزئيات الكائنة في العلائق والصلات بين الكلام .

المعنى الوضعي للتناسب :

التناسب من النسب وهو : "اتصال الشيءِ بالشيء، و منه النّسَب، سمي لاتّصاله وللاتّصال به." [٣] والنسب هو : "نسب القرابات... وتقول : ليس بينهما مناسبة

=

١٤١٥هـ -١٩٩٤م ، دار إحياء العلوم —بيروت .

(١) القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، شرح وتعليق وتنقيح : محمد عبد المنعم خفاجي ١٩/٢ ، ط٣، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م ، دار الجيل—بيروت .

(٢) البقاعي، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، خرّج آياته وأحاديثه ووضع حواشيه : عبد الرزاق غالب المهدي١/٥ ، ط٢٠٠٣،٢م -١٤٢٤هـ، دار الكتب العلمية /بيروت - لبنان .

(٣) ابن فارس، أبو الحسن أحمد بن زكريا، مقاييس اللغة ،تحقيق وضبط : عبد السلام محمد هارون، مادة : (نسب) بدون ط، دار الجيل - بيروت .

أي: مشاكلَة." [١]والنسب مذكور في القرآن الكريم[٢]ويقصد به القرابات والصلة، [٣]وهو معزّز لمعنى الصلات والوشائج والعلائق بين الأشياء، وباب التناسب باب عظيم، فهو يضم معاني كثيرة وطرائق عديدة وأنواعا لا تحدّ ومنه التلاحظ والتشاكل والتقارب والاقتران والتوافق والتشابه والتلاؤم والتآخي وغيرها كثير، والتناسب ضد التخالف والاختلاف ولذلك جاء في شأن القرآن: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ النساء (٨٢).

والتناسب في الكلام دال على بلاغته وعلوّه، وهذا هو لبُّ العلاقة الذي قال عنه البقاعي: "وهو سرّ البلاغة لأدائه إلى تحقيق مطابقة المعاني لما اقتضاه من الحال."[٤]

والنسب وثيق الصلة بالسياق وقرائن الأحوال؛ فبينهما علاقة تفاعلية، والترتيب يتأثر بالسياق ويعبر عن مكنوناته ودلالاته عبر منظومة متكاملة ومنهج معين.

ولما كان التناسب متحققا في القرآن الكريم، وفي كل كلام بليغ؛ لزم أن يكون متحققا في الحديث النبوي كذلك، لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾النجم (٣ -٤) فالتناسب والانسجام دليل كل عمل بديع وصنعة

---

(١) ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، مادة (نسب) ط١٤١٤،٣هـ -١٩٩٤م ،دار صادر /لبنان - بيروت.

(٢) قال تعالى: فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ}(١٠١) المؤمنون وقال أيضا: {وهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا} (٥٤) الفرقان . وقال أيضا : {وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا }(١٥٨) الصافات .

(٤) ينظر في تفسير الآيات إلى الطبري أبي جعفر، محمد بن جرير بن يزيد بن خالد،جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ١٤٠٥ هـ - بدون ط ، دار الفكر — بيروت.

(٥) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ٥/١ .

جيدة، وكلام المصطفى ﷺ بناء متلاحم، ورصف محكم، ونسج متوائم. ولما كانت المناسبة قائمة على التدبّر والاستبصار؛ كانت القواعد الأصولية لازمة لضبط مسألة الاجتهاد.[١]

والخطبة النبوية لسان الدعوة الإسلامية والمؤثرة فيها في العصر الإسلامي وصدره خاصة[٢]، وهي نسيج متكامل من مجموعة من المعاني ينعطف بعضها على بعض، أو يتقابل، أو يتقارب، بحيث ترتبط فيما بينها بروابط متعددة ومتفاعلة بنظام واحد، وترتيب وتراتب، تتحدر كتحدّر الماء المنسجم.

(١) أبو اسحاق الشاطبي، ينظر الموافقات في أصول الشريعة، تحقيق:عبد المنعم إبراهيم ٩٦٩/٤ وما بعدها، ط١، ١٤١٨ هـ -١٩٩٧م المملكة العربية السعودية / مكتبة نزار مصطفى الباز - مكة المكرمة.

(٢) سمى الغذامي الخطابة الإسلامية:(الخطابة الوظيفية) التي امتزج فيها القول بالفعل.(الغذامي، عبد الله، ينظر النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية صـ١٠٣،ط٣، ٢٠٠٥م، المركز الثقافي العربي، السعودية، الدار البيضاء / لبنان-بيروت).

المطلب الأول

نموّ المعاني وانسجامها في الخطبة النبوية الواحدة

أولا : خطبة النبي ﷺ في الحث على الصدقة .

ثانيا : خطبة النبي ﷺفي صفة الدنيا وأحوال الناس فيها .

التلاحم والتماسك من محامد الكلام وجودة التأليف، وقديما قال الجاحظ: "وأجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء، سهل المخارج، فتعلم بذلك أنه أفرغ إفراغاً واحداً، وسبك سبكا واحدا."[1] وتلاحم الأجزاء هذا وسبكه سبكاً واحداً هو نتاج فهم الموضوع وتشرّب معانيه، فمتى كان الكلام واضحا في النفس؛ كان مرتّبا على اللسان، وهذا أدخل في المقاصد والغايات التي تعدّ جوهر ترتيب المعاني وانتظامها.

ولا شيء أدل على مقدمات الخطب وخواتيمها ووسطها، ومعانيها الكليّة والجزئيّة، ومقاصدها وغاياتها، وتصاعد معانيها ونموّها؛ مثل الحلّ والارتحال في الخطبة كلها من أولها حتى آخرها بالتدبر والتأمل في معانيها، وطرق تعالقها، ومواقع المفاصل والمقاطع منها، والنظر في سياقها المقاميّ والمقاليّ، فالنظرة الكليّة للخطبة النبوية تفيد في سبر أغوارها، وإدراك معانيها للوصول لفقه الحديث النبوي الذي هو متولد عن معاني القرآن، وموضّح لجزئياته، ومفصّل لمجمله.

وهذا ما أدركه الشاطبي حين قال: " اعتبار جهة النظم مثلا في السورة لا تتم به فائدة إلا بعد استيفاء جميعها بالنظر، فالاقتصار على بعضها فيه غير مفيد غاية المقصود، كما أن الاقتصار على بعض الآية في استفادة حكم ما لا يفيد إلا بعد كمال

---

(١) الجاحظ، أبو عثمان، البيان والتبيين، حققه:حسن السندوي ٧/١ بدون ط، ١٩٩٠ م، دار المعارف – تونس.

النظر في جميعها."[١] هذا القول الذي ذكره الشاطبي في النظرة الكليّة لمعاني السورة الواحدة يُقاس عليه النظرة الكليّة لمعاني الخطبة الواحدة، فالنظر في أجزاء القول وترتيبه أصل في معرفة حركة المعاني ونموّها وكيفية نسقها، فيُنظر في استهلال الخطبة، وفي عرض موضوعها، ثم خاتمتها ليدرك الذهن الصلات بين الأجزاء؛ كيف تعاطفت على بعضها واتسقت، وكيف ترتبت وتراتبت، وكيف دلّ الكلام أوله على آخره، وعاد مقطعه على مطلعه، فالمعاني تتجاور وتتجاذب في الخطبة الواحدة في نسق عجيب محكم للسير نحو المقصود الأعظم فيها .

وقد تحتوي الخطبة على معانٍ جزئية تتلاحم فيما بينها مكوّنة معاني كليّة تدور كلها حول محورها الرئيس، هذه المعاني تتصاعد وتتنامى حسب إيجاز الخطبة أو إطنابها وسير معانيها لتحقق الغرض وتفي بالمقصود، وهذا كله يوصل إلى المنهج النبوي الكريم في رعاية نسق المعاني في الخطبة النبوية .

أولا : خطبة النبي ﷺ في الحث على الصدقة :

عن المنذر بن جرير عن أبيه قال: كُنَّا عند رسول الله ﷺ في صدر النهار، قال: فجاءه قوم حفاة عراة مجتابي النّمار[٢] أو العباء، متقلدي السيوف، عامتهم من مض، بل

---

(١) الشاطبي، الموافقات ٣/٨٥٥-٨٥٦.ويقول صلاح فضل عن أهمية النظرة الكلية للنص:"هذه البنية الكبرى التي تلح على تأكيد ضرورة البحث عنها في التحلل لا تؤدي فحسب إلى التماسك الكلي، بل تؤدي إلى التماسك الجزئي المحلي في المستوى الكامن تحت متتاليات الجمل"(ينظر بلاغة الخطاب وعلم النص صـ٣٤٤ بدون ط، بدون تاريخ، مكتبة لبنان،الشركة المصرية العالمية للنشر / لو نجمان).

(٢) " النمرة:كل شملة مخططة من مآزر الأعراب كأنها أخذت من لون النمر لما فيها من السَواد والبياض." (ابن منظور، لسان العرب، مادة :(نمر)) .

كلّهم من مضر، فتمعّر وجه رسول الله ﷺ لما رأى بهم من الفاقة، فدخل ثم خرج، فأمر بلالاً فأذن وأقام فصلى، ثم خطب فقال: "{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ}[٤/النساء/الآية١] إلى آخر الآية: {كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا} والآية التي في الحشر: {اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ} [٥٩/الحشر/الآية :١٨] تَصَدَّقَ رَجُلٌ من دينارِهِ، من درهمِهِ، من ثوبهِ، من صاع بُرِّهِ، من صاع تمرِهِ - حتى قال – ولو بشِقِّ تَمرةٍ. قال: فجاء رجل من الأنصار بصرّة كادت كفه تعجز عنها، بل قد عجزت. قال: ثم تتابع الناس، حتى رأيتُ كومين من طعام وثياب، حتى رأيتُ وجه رسول الله ﷺ يتهلل كأنه مُذهَبَة، فقال رسول الله ﷺ: "مَنْ سنَّ في الإسلامِ سنَّةً حسنةً فَلهُ أجْرُهَا وأجْرُ مَنْ عملَ بِهاَ بعده مِن غَيرِ أن يَنْقُصَ مِنْ أُجورهمْ شَيءْ، ومَنَ سنَّ في الإسْلامِ سُنَّةً سَيِّئةً كان عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عمِلَ بها مِنْ بعده مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ".(١)

❖سير المعاني في الخطبة (٢):

---

(١) الإمام مسلم، صحيح مسلم،كتاب:(الزكاة) باب: الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة وأنها حجاب من النار ٢/ ٧٠٤ – ٧٠٥ .

(٢) أولا: استهلال الخطبة: من قولهﷺ **:** "{ يأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا}إلى{ ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ }" .

ثانيا: المعقد الكليّ في الخطبة: معايشة النبي ﷺ لهموم أمته، وينطوي تحته معنيان جزئيان:

المعنى الجزئي الأول: أمر الرسول ﷺ للمسلمين بالمسارعة بالصدقة بمعنى غير مباشر في قوله:" تصدق... تمرة".

المعنى الجزئي الثاني: وصف الراوي الحال التي صار إليها الرسو لﷺ وصحابته في قوله:"قال فجاء ...مذهبة".

ثالثا: خاتمة الخطبة: في قولهﷺ :"من سن ...من أوزارهم شيء."

=

المعقد الكليّ في الخطبة : معايشة النبي ﷺ لهموم أمته ، وينطوي تحته معنيان جزئيان :

المعنى الجزئي الأول : أمر الرسول ﷺ للمسلمين بالمسارعة بالصدقة بمعنى غير مباشر من قوله : "تصدق رجل... " إلى قوله : " ولو بشق تمرة " :

بعد استهلال الخطبة بآيات من الذكر الحكيم قال الرسول ﷺ : " تَصَدَّقَ رَجُلٌ من دينارِهِ، من درهمِهِ، من ثوبهِ، من صاع بُرّهِ، من صاع تمرهِ - حتى قال – ولو بشِقِّ تَمرةٍ "، وهو من إيراد الخبر مورد الإنشاء، ففيه حث على الصدقة، وتحريض عليها بدلالات غير مباشرة، حيث جاء الفعل : (تصدّق) بالمضي والمقصود منه الطلب ؛ وذلك لأن الماضي أدلّ على الثبوت والاستقرار من الطلب، ويؤيد ذلك الطيبيّ حينما قال : "لعل الظاهر : (ليتصدق رجل)، ولام الأمر للغائب محذوف...ولو حُمل(تصدق) على الفعل الماضي لم يساعد عليه قوله : (ولو بشق تمرة) ؛ إذ المعنى : ليتصدق رجل ولو يشق تمرة."(١)

ولعل في قوله : (تصدق) بالمضي استعارة لتشبيه غير الحاصل بالحاصل ؛ للتفاؤل أو لإظهار الحرص على وقوعه، وهذا يزيد من وقع العبارة وبلاغتها، وبلوغها المقصود، وساعد على بلوغ هذا المعنى تنكير لفظ : (رجل) لعمومه ؛ تحفيزا على امتثال الحاضرين جميعا.

=

رابعا: مقصود الخطبة:تنمية روح التكافل بين المسلمين، والشعور بالمسؤولية بعضهم تجاه بعض، وبيان فضل المسارعة فيها .

(١) الطيبي، شرف الدين الحسين بن عبد الله، شرح الطيبي على مشكاة المصابيح المسمى بالكاشف عن حقائق السنن،تحقيق:عبد الحميد هنداوي٢/٦٦٩- ٦٧٠ ط ١، ١٤١٧هـ ، ١٩٩٧م، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة /الرياض.

وقوله ﷺ : (من ديناره، من درهمه ...) فيه بيان استحباب الإنفاق من أيّ نوع وبأيّ كمية، حيث يجوز أن تكون (من) للجنس أو التبعيض، وخَتْم هذه العبارة بالكناية جميل جدا حين قال: (ولو بشق تمرة) فكنى البيان النبويّ عن القلّة المتناهية المفيدة، وفيه استحباب الإنفاق وعدم احتقار شيء من المعروف، وتلتحم الكناية مع أشباه الجمل السابقة لتعزيز معنى الترغيب في الإنفاق والوصول به درجة عالية تؤثّر في المتلقي .

ويجوز حمل العبارة كلها على التعريض بطلب الصدقة، والتعريض من محامد الكلام حيث يكفي التلميح في مثل هذه المواقف، وهو أنجح من التصريح ودليله تلك الاستجابة التي ذكرها راوي الحديث فيما بعد حين قال: " فجاء رجل من الأنصار بصرّة ..." فتجسّد امتثال المسلمين للأمر المضمّن في العبارة السابقة. هذه المعاني حيكت بأسلوب عالٍ يقصد إلى المعاني الثانية التي سمّاها عبد القاهر الجرجاني: (معنى المعنى) وهذا المقام هو مقام التلميح لا التصريح ،ولذلك حسن وقعه وأدّى المقصود منه.

<u>المعنى الجزئي الثاني:</u> وصف الراوي للحال التي صار إليها الرسول ﷺ وصحابته من قوله: "قال: فجاء رجل... كأنه مذهبة " :

ابتدأ هذا المعنى الجزئي بوصف الراوي لامتثال الصحابة بعد الخطاب النبويّ الكريم الذي يرغّب فيه في بذل الصدقة، حيث أبان عن أن رجلا من الأنصار أنفق في سبيل الله كادت كفّه تعجز عنها، ثم أضرب الراوي فقال في وصفه: (بل قد عجزت) وكان الأسبق في الامتثال حتى تبعه الناس بعد ذلك بتقديم صدقاتهم التي كونت كومّين من طعام وثياب، وهنا ينمو المعنى ويتصاعد، فالرسول ﷺحين قال : "تصدّق رجل من ديناره، من درهمه..."عمل على التأثير على المتلقين، وحينما نقل الراوي ردة فعل الحاضرين بقوله: "فجاء رجل من الأنصار بصرّة كادت كفه تعجز عنها، بل قد

عجزت. قال: ثم تتابع الناس، حتى رأيتُ كومين من طعام وثياب" أبان عن الأثر والتأثر بين النبي ﷺ وأصحابه. وتتمّة للموقف فقد وصف الراوي غير الملفوظ من بيانه ﷺ من السعادة والسرور الظاهرَين على وجهه الكريم حيث قال: "حتى رأيت وجه رسول الله ﷺ يتهلل كأنه مذهبة "وفيه تشبيه وجهه ﷺ وقد علاه البشر والسرور بالشيء الذي جُمّل باللون المذهب؛ لجامع البريق واللمعان في كلّ، وذلك لما رأى امتثال الصحابة لفحوى خطابه السابق، وهذا يصبّ في معنى المفاعلة والأثر، فمنظر وجه الرسول ﷺ وهو مضيء من شدة الفرح يبعث السعادة والسرور في نفس المسلم، ويحفّزه على المتابعة والاستمرار، وهو ثمرة الخطبة ونتاجها.

مركز المعنى في الجزء الأول والثاني والعلاقة بين المعنيين :

المعنى في الجزء الأول يتمركز حول الحث على التصدق ولو بأقل القليل، ولذلك نجد توالي الدلالات غير المباشرة من إيراد الخبر مورد الإنشاء، والاستعارة، والكناية، وتعاضد هذه الطرق لرفع درجة التأثير، والضغط على الوجدان في نسق عجيب وترتيب أنيق، وكأنها حكاية تروى عن رجل تصدّق وانتهى بأنواع مقبولة عند الله، تدّرج بذكرها من الأكثر – الدينار والدرهم - إلى الأقل -الثوب والصاع من بر وتمر، حتى بلغ شق التمرة – مع ملاحظة الإفراد في كل، وهذا كله يعين الصور البيانية السابقة على بلوغ مراميها من الترغيب في التصدّق ولو بأقل القليل، وذلك يسعى للحصول على الإقناع في مجمله.

والمعنى في الجزء الثاني يتمركز حول بيان حصول التأثير والتأثّر، وبيان تعديل السلوك وتحقق الامتثال، وهذا هو المقصود، وكان الأسلوب القصصي من راوي الحديث أصلا في هذا البيان.

أما العلاقة بين المعنيين فهي علاقة النتائج بالمقدمات، فالجزء الأول يتضمن معنى الأمر بالرفق بحال هؤلاء الوفود الذين هم إخوة في الإسلام، ودفع الصدقة إليهم أيّا كان قدرها وأيّا كان نوعها، وحمل الجزء الثاني معنى امتثال الصحابة لذلك الأمر وفهمهم عن الرسول ﷺ وإن كان الطلب بطريق غير مباشر أو بدلالة غير صريحة فهي محصّلة لما سبق بيانه، وعُطف عليه معنى الاستحسان النبوي.

وعلاقة النتائج بالمقدمات من أوضح العلاقات وأقواها بين أجزاء القول، وهي تعمل على الانسجام بين المعاني الذي يخلّف تماسكا نصّيا، فإذا المعنى كله حلقة واحدة لا يُعلم أين طرفاها.

ثانيا: خطبة النبي ﷺ في صفة الدنيا وأحوال الناس فيها:

عن أبي سعيد الخدري قال: خطبنا رسول الله ﷺ خطبة بعد العصر إلى مغيربان الشمس، حفظها منا من حفظها، ونسيها منا من نسي، فحمد الله، قال عفان وقال حماد وأكثر حفظي أنه قال بما هو كائن إلى يومِ القِيَامة - فحمد الله وأثنى عليه – ثم قال: "أَمَّابعدُ، فإنَّ الدنيا خَضِرَةٌ حُلْوةٌ، وإن اللهَ مُسْتَخْلِفكُمْ فيهَا، فناظِرٌ كيَف تعمَلونَ، ألا فاتَّقُوا الدّنْيَا، واتَّقُوا النِّساءَ.ألا إنَّ بنِي آدمَ خُلِقُوا على طبقاتٍ شَتى: منهم مَنْ يُولدُ مُؤمِنًا ويحيا مُؤمِنا ويَموتُ مؤمِنًا. ومنهمْ مَنْ يُولدُ كَافرًا وَيَحيا كَافرا وَيَموتُ كَافِرا. وَمنهم مَنْ يولدُ كافرًا وَيَحيَا كافرا وَيَموتُ مؤمِنًا.ومنهمْ مَنْ يولدُ مُؤمنا ويحيا مُؤمنا ويموتُ كافرا.ألاإنَّ الغضبَ جمرَةٌ تُوقدُ فِي جوفِ ابن آدمَ، أَلا تَرونَ إِلىَ حُمرةِ عَينيهِ، وَانْتفاخِ أوداجِهِ؟! فإذَا وَجدَ أحدكُم شيئا مِنْ ذلكَ فَالأَرضَ الأرضَ.ألا إنَّ خيرَّ الرِّجالِ مَنْ كان بَطِيءَ الغضبِ سَرِيعَ الرَّضا، وَشرَّ الرَّجالِ مَنْ كانَ سريعَ الغضَبِ بَطيءَ الرَّضَا، فَإِذا كانَ الرّجلُ بَطيءَ الغضَبِ بِطيءَ الفيء، وَسَريعَ الَغَضَبِ سَرِيعَ

الْفَيءِ فَإِنَّها بِهَا.أَلا إِنَّ خَيرَ التُّجَارِ مَنْ كَانَ حسَنَ القَضَاءِ حَسَن الطَلَبِ، وَشَرَّ التُّجَارِ مَنْ كَانِ سَيِءَ القَضَاءِ سيئ الطَلَبِ، فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ حسَنَ القَضَاءِ سيئ الطَلَبِ أَوْ كَانَ سيئ القَضَاءِ حَسَنَ الطَلَبِ فَإِنَّها بِهَا.أَلا إِنَّ لِكُلِ غَادِرٍ لَواءً يَومَ القِيَامَةِ بِقَدْرِ غَدْرتِهِ، أَلاَ وَأَكْبَرُ الغَدْرِ غَدْرُ أَمِيرَ عَامَّةٍ.أَلا لا يَمْنَعَنَّ رَجُلاً مَهَابَةُ النَّاسِ أَنْ يَتَكَلَمَ بِالْحَق إِذَا عَلِمَهُ، أَلاَ إِنَّ أَفْضلَ الْجِهَادِ كَلِمَةُ حَقّ أَمَامَ سلْطَانٍ جَائِرٍ - فلما كان عند مغيربان الشمس -قال: " أَلا إِنَّ مَثلَ مَا بَقِي مِنَ الدُّنْيَا فِيمَا مَضَى مَنْهَا، مثلُ مَا بقَي مِنْ يَوْمِكُم هَذَا فيمَا مَضَى مِنْهُ."(١)

❖ سير المعاني في الخطبة (٢) :

---

(١) أحمد بن حنبل، أبو عبد الله الشيباني، مسند الإمام أحمد بن حنبل (مسند أبي سعيد الخدري) ٣/ ٩ بدون طبعة،مؤسسة قرطبة، مصر .

(٢) أولا: المقدمة: نمطية بقول الراوي عن الرسول ﷺ **:** "فحمد الله وأثنى عليه" وتحتوي المقدمة على براعة الاستهلال من قوله ﷺ :"إ ن الدنيا...تعملون".

ثانيا: المعقد الكلي الأول :مقتضيات منهج الاستخلاف في الأرض للمؤمن كما ينبغي أنيكون، وذلك من قوله ﷺ:"ألا فاتقوا الدنيا...سلطان جائر" ويحتوي على معانٍ جزئية عديدة:

– المعنى الجزئي الأول : التصريح بالأمر باتقاء فتنة الدنيا وفتنة النساء في قولهﷺ :"أَلاَ فَاتَّقُوا الْدُّنْيَا، واتَّقُوا النَّسَاءَ ".

–المعنى الجزئي الثاني : ذكر أحوال عقائد الناس ومآلهم في الدنيا في قوله ﷺ :" ألا إن بني . . . ويموت مؤمنا ".

– المعنى الجزئي الثالث : الأخلاقيات الإنسانية التي تعين على الاستخلاف الجيد في قوله ﷺ :"ألا إن الغضب. . . فإنها بها".

– المعنى الجزئي الرابع : الأخلاقيات التجارية التي تعين على الاستخلاف الجيد في قوله ﷺ :" ألا إن خير التجار من كان . . .فإنها بها".

– المعنى الجزئي الخامس :الأخلاقيات الخطرة على المجتمع فيما بينه، وفيما بينه وبين الحاكم من قوله:"ألا إن لكل غادر. . .جائر ".

=

المعقد الكلي في الخطبة :

بيان مقتضيات منهج الاستخلاف في الأرض للمؤمن كما ينبغي أن يكون، من قوله ﷺ : " ألا فاتقوا الدنيا ..."إلى قوله : " أمام سلطان جائر"، وتحته معانٍ جزئية عديدة :

المعنى الجزئي الأول : التصريح باتقاء فتنة الدنيا وفتنة النساء في قولهﷺ : "أَلا فـاتَّقُوا الْدُّنْيـاَ، وِاتَّقُوا النَّسَاءَ :

استفتح المصطفى ﷺ موضوع الخطبة بالأمر باتقاء الدنيا وأتبعه باتقاء النساء صراحة، وتعلّق فعل التقوى بالدنيا والنساء من التعبير بالمجاز المرسل ذي العلاقة السبّبية ؛ إذ ذكر السببين وهما الدنيا والنساء، وأراد المسبَّب عنهما وهي الفتنة في كليهما، والفتنة المقصودة هي : الزيادة منهما من غير نفع في الآخرة.

ومن بلاغة المجاز في هذا المقام ؛ المبالغة في بيان ضرر الافتتان بالدنيا والنساء، فعبّر بالأمر بتقواهما بالكليّة، ولكون هذا التعبير أوسع وأكثر غزارة في المعاني من قول : اتقوا فتنة الدنيا وفتنة النساء، كما يضرب بسهم إلى الإيجاز في العبارة مع جزالتها، ولعل في ذكر فتنة النساء عقيب فتنة الدنيا ذكرا للخاص بعد العام، و إيذانا" بأن الفتنة بالنساء أعظم الفتن الدنيوية"[1]، وهو وجه للعلاقة بينهما في التحذير.

=

ثالثا : الخاتمة: من قوله:" ألا إن مثل ... فيما مضى منه ".

رابعا: مقصود الخطبة: وضع المنهجية والأطر العامة للقيام بمسؤولية الاستخلاف في الأرض بما يعود على المؤمن بالخير الكثير في الدنيا والاخرة.

(١) الساعاتي، أحمد عبد الرحمن البنا،كتاب الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني. ٢١/٢٦٧،ط١،بدون ت،دار إحياء التراث العربي.

المعنى الجزئي الثاني: ذكر أحوال عقائد الناس ومآلهم في الدنيا من قوله: "ألا إن بني ...ويموت مؤمنا":

أبان المصطفى ﷺ عن أحوال الناس في الإيمان والكفر ومآلهم عن طريق تضمين معنى الأمر باتقاء الردة إلى الكفر والدعوة إلى الثبات على الإيمان، فمنهم السعيد في الدارين، ومنهم الشقي في الدارين، ومنهم من يولد مؤمنا ويحيا مؤمنا ويموت كافرا، وعكسه.

وبين العبارتين تناظر بين الحالين والمآلين: ولادة بإيمان، وحياة وممات على إيمان، وهذه أعلى الطبقات، ونظيرها: ولادة بكفر، وحياة وممات على كفر، ولعلّها أدنى الأحوال، وبين العبارتين الأُخريين كذلك تناظر بين الحالين والمآلين: ولادة وحياة بإيمان ثم انقلاب وممات على كفر، ونظيره ولادة وحياة على كفر وممات على إيمان، ولعل الابتداء بذكر أعلى طبقة(المؤمنة)ابتداء تكريم، ثم اقتضى المقام أن يُذكر النظير، وتتوالى الأقسام بعد ذلك.

ويُلفت الأحوذي النظر إلى أن التقسيم المذكور لم يستوفِ جميع الحالات؛ إذ إن هناك أقساما لم تذكر مثل: من يولد مؤمنا ويحيا كافرا ويموت مؤمنا، ومن يولد كافرا ويحيا مؤمنا ويموت كافرا، وعلّل ذلك بقوله: "المقصود منه أن العبرة بالخاتمة"[1]، وهذا يعيننا على معرفه المقصد من التصنيف النبوي، فالمآل هو محلّ التأمّل وترديد النظر.

المعنى الجزئي الثالث: الأخلاقيات الإنسانية التي تعين على الاستخلاف الجيد في قوله: "ألا إن الغضب ... فإنها بها":

---

(١) المباركفوري، أبو العلا محمد عبد الرحمن، تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي. ٣٥٧/٦، دار الكتب العلمية – بيروت.

لعل من أهم ما يفسد ثمار الاستخلاف في الأرض نواتج الغضب، ولذلك حذّر الرسول ﷺ من الغضب بطريق التشبيه حين قال : "ألا إن الغضب جمرة "، فلما كان الغضب ذا أثر بالغ على الإنسان، ويُحدِث اضطرابا في حركاته وسكناته مما ينتج أفعالا وقرارات وخيمة لا تتصل بحكمة ؛ جاء تشبيه الغضب بالجمرة ؛ تقريبا لمعنى سوء الأثر، ولما أردف بقوله : (توقد في جوف ابن آدم) دلّ على الأثر الحاصل في الحال وليس بعد ذلك، ودل على حصول الأثر على الغاضب ابتداءً، ومن يطيق جمرة تكون في جوفه، فلهيبها لا يطيقه بشر، وهي تحرق كل ما جاورها فكيف بما تقع عليه أصلا، والغضب يؤثّر على صاحبه، وعلى الآخرين، ولعل التقرير : " ألا ترون إلى حمرة عينيه، وانتفاخ أوداجه" يسهم في الاستدلال المنطقي القائم على المشاهدة لحصول التصديق، ويسوق أيضا إلى الاعتبار والاتعاظ، لأن الغاضب تحمّر عيناه، وتنتفخ أوداجه ويحمّر وجهه من شدة الغضب، ولو نظر الغاضب إلى شكله في المرآة لكره نفسه، مما يلحظه من تشوّه في صورته. والأمر لا يقف عند الهيئة والصورة وحسب بل يتعدى إلى فقدان القدرة على السيطرة على حركاته وألفاظه، مع فقده لاتزانه النفسي، وهذا نفسه حاصل لو وضعنا جمرة في جوف أحدهم أو في يده، ولذلك جاء الهدي النبوي لتهذيب غريزة الغضب وصيانتها عن الإفراط والتفريط بالنهي عنها والترغيب في ضبط النفس.

والتشابه بين الجمرة والغضب كذلك في العلاج الذي أشار إليه بتكرار كلمة (الأرض الأرض) بمعنى الأمر بالتزام الأرض، فالجمرة ذات أثر إذا جاورت ما يغذي شعلتها، ومتى التصقت بالأرض دون مجاورة لما يذكي جذوتها تخمد في الحال، والإنسان إذا غيّر وضعية جسمه من الوقوف إلى الجلوس، أو إلى الاستلقاء فإن ذلك

يطفئ غضبه، فالتشبيه ذو وقع جيد في هذا المقام، وأدى الغرض من التصوير؛ من المبالغة في بيان سوء أثر الغضب على صاحبه ابتداءً وعلى الآخرين كذلك.

ولما ذُكر أثر الغضب على النفس البشرية وعلاجه؛ أُتبع بذكر أصناف الناس بين الغضب والرضا، فبُدئ بأخيرهم، ثم أُتبع بذكر أشرهم، ثم بقية الأصناف التي تتساوى فلا تُنسب إلى خير ولا شرّ، وهو ذِكرٌ من باب التناظر بين الرضا بدرجاته والغضب بدرجاته، ليسهم في جلاء المعنى، فالضد يظهر حسنه الضد، قال القارئ: "والتقسيم بمقتضى العقل رباعي لا خامس له".[1] وكلامه فيه إشارة إلى حسن التقسيم الذي تميّز به ذكر أنواع الناس بين الرضا والغضب؛ لأن التقسيم لا يحسن إلا إذا استوفى جميع أنواع المذكور.

المعنى الجزئي الرابع: الأخلاقيات التجارية التي تعين على الاستخلاف الجيد من قوله: " ألا إن خير التجار... فإنها بها": لما كان القضاء والطلب للدَّين من أهم المعاملات بين الناس وكان قد سَبَق الحديث عن أهم ما يمكن أن يفسد أخلاق الناس؛ كان ذكر المعاملات بين الناس مهمًا في هذا المقام؛ لأنه من مقومات الاستخلاف الجيد.والمقصود بحَسَن القضاء: "مستحسن الأداء إذا كان عليه الدين "[2]والمقصود بحَسَن الطلب: " إذا كان له دين على أحد".[3]وسيئهما يكون عكس ذلك من عدم الوفاء بالدّين أو المطل مع اليسر.

فابتدأ بأعلى طبقة، وساق الحديث عن أسوأ طبقة للتناظر بين الحالين، ثم ذكر الطبقتين الأخريين اللتين تستويان فيهما أحوال الرجال في القضاء فلا تذم ولا تحمد.

---

(١) المباركفوري، كتاب تحفة الأحوذي ٦ /٥٨ .

(٢) المباركفوري، كتاب تحفة الأحوذي ٦/٥٨ .

(٣) السابق ٦/ ٥٨ .

المعنى الجزئي الخامس: الأخلاقيات الخطرة على المجتمع فيما بينه، وفيما بينه وبين الحاكم من قوله: "ألا إن لكل غادر... سلطان جائر": في هذه العبارة ضمّن المصطفى ﷺ معنى الأمر باتقاء الغدر بطريق الإخبار، وهي عبارة مبنية على الكناية عن الشهرة التي ستكون يوم القيامة لكل غادر، وهي شهرة سوء والعياذ بالله، كما أنها صورة ذهنية تُرسَم لكل غادر بعد هذا الوعيد، وهو خطاب للعرب على قدر عقولهم ومن أحوالهم.

فأوعد المصطفى ﷺ كل من يغدر بالفضيحة والخزي يوم القيامة، وأكبر الغدر غدر أمير عامة؛ "لأن الغدر يتعدى ضرره إلى خلق كثير، ولأنه غير مضطر إلى الغدر لقدرته على الوفاء". [1] وهذا سياق ترهيبي من الغدر بشتى أنواعه وسبله وصوره، وهو سياق يبين عن خطر الغدر بين الناس في معاملاتهم.

ثم إنه لما قال: " ألا لا يمنعن رجلا..." : صرّح باتقاء الخوف من إبداء كلمة الحق بطريق النهي الذي يحمل معنى الأمر بقول الحق، وهو سياق ترغيبي في الجرأة على الحق بين الناس حتى أمام حاكم ظالم يُخشى عقابه؛ لأنه أفضل الجهاد كما ذكر ﷺ، فلما كان قول الحق أمام حاكم ظالم محل الخشية والخوف والتقهقر والتراجع، رغّب فيه وشجع عليه خاصة، فانتقل من العام إلى الخاص، إذ قول الحق مطلوب أمام الناس عامة، وأفضل المواقف وأخصها أمام حاكم ظالم. وظاهر الكلام نهي عن كتمان الحق إذا علمه، وغالبا يكون في مواطن الشهادة سواء طُلِبت أو لم تُطلب.

---

(١) السابق ٦/ ٢٨٤ .

مركز المعنى في الأجزاء الخمسة :

يتمركز المعنى في الجزء الأول حول التحذير الصريح من الافتتان بالدنيا وملذاتها، والتي تعد فتنة النساء أخطرها. ويتمركز المعنى في الجزء الثاني حول التحذير من الاغترار بصلاح العقيدة في الحياة، والدعوة إلى سؤال الله الثبات ؛ لأن العبرة بالخواتيم. وأما المعنى الجزئي الثالث فمركز معناه في التحذير من نواتج الغضب بين الناس، والترغيب في الامتثال لأعلى طبقة. والرابع يتمركز حول الترغيب في الإحسان في المعاملات التجارية في القضاء والطلب. ومحور الخامس في التحذير مما يضرّ بالمجتمع من الغدر، وعدم القدرة على قول كلمة الحق.

علاقه المعاني الجزئية بعضها ببعض :

هذه المعاني الجزئية تصبّ في بناء الشخصية المسلمة عقيدة وسلوكا، فهي موضوعات اجتمعت لتفصّل ما أُجمل في أول الخطبة حينما قال ﷺ :"أما بعد، فإن الدنيا خضرة حلوة، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون" إذ إن اتقاء فتنة الدنيا وفتنة النساء من أعظم مقتضيات الاستخلاف الجيد في الأرض، ولهذا ابتدر بذكر الأمر باتقائهما صراحة، وكرر الفعل مرتين مع الدنيا والنساء فخصّ بعدما عمم، ويعد هذا المعنى نموّا وتصاعدا لمعنى عدم الاغترار بالدنيا، حيث جاء التصريح بالأمر بتقوى الدنيا، وثنّى بعد ذكر اتقاء الدنيا والنساء بذكر اتقاء الردة إلى الكفر والدعوة إلى الثبات وعدم الاغترار ضمناً وليس صراحة بطريق الإخبار بطبقات الناس وحالهم، ومآلهم، فكان بناءً للعقيدة، والمعنى هنا تفرّع من التحذير من الاغترار بالدنيا إلى بناء العقيدة الصلبة الثابتة بعدم الاغترار بحسن الحال، إذ العبرة بالخواتيم، وتدرّج إلى ذكر اتقاء ما يفسد علاقات الناس فيما بينهم من المعاملات الوديّة، فذكر الغضب وأنشأ

صورة ذهنية بيانية تعتمد على التشبيه في سياق تنفيري من الغضب وأثره، وأتبعه بذكر أنواع الناس بين الرضا والغضب وبين الخير والشر.

ولما ذكر أعظم ما يفسد الصلات الودية بين الناس، أتبعه بذكر ما يفسد الصلات التجارية بين الناس، فذكر أنواع التجار بين القضاء والطلب، وبيان طبقات الخير والشر فيما بينهم، وهذا من التناظر بين المعاني الذي يؤدي إلى نموّ المعنى.

وبناء المعاني في هذين المعنيين الجزئيين يحمل بين جنباته ترغيبا وتحذيرا، وجاء على نسق واحد، مع حسن التقسيم في كليهما.

وذكر الأنواع في المعاني الجزئية الثلاثة السابقة يبيّن فضل كل قسم على غيره بالتلميح المرغِّب إلى ضرورة تخيّر الأفضل والامتثال للأصلح، والتحذير بالتلميح أيضا من القسم السيئ غير المرغوب.

قال الصنعاني: "فهذا الحديث الجليل قسم الناس إلى اثنتي عشرة طبقة باعتبار ست صفات: الإيمان والكفر، والغضب والرضا، والقضاء والطلب: فطبقتان من القسم الأول محمودتان، وطبقتان مذمومتان، ومن التقسيم الثاني طبقة محمودة، وطبقة مذمومة، وطبقتان لايتصفان بذم ولا مدح، والتقسيم الثاني كالثالث في ذلك"،[1] وكلامه هذا يبيّن نظره في تناسب الكلام وصلة بعضه ببعض، وتأمّله في نسق الخطبة وترتيب معانيها، وبيان كيفية ترابطها وتعانق معانيها، وكيفية بنائها.

ولما ذكر أهم ما يفسد العلاقات الإنسانية والتجارية بين الناس؛ تدرّج المعنى صعودا بذكر أهم ما يفسد علاقات المجتمع فيما بين أفراده، وبينه وبين الحاكم، من الغدر، ومن عدم الشهادة بالحق بين الناس إذا علموها، ثم خصصهما بعدما عمم ببيان أن

---

(١) الكحلاني، محمد بن إسماعيل بن محمد الحسني، كتاب التنوير شرح الجامع الصغير، المحقق: د. محمَّد إسحاق إبراهيم ٣/٢٣١، ط١، ١٤٣٢ هـ، ٢٠١١ م، مكتبة دار السلام- الرياض.

أسوأ الغدر غدر الأمير للعامة، وهو سياق تنفيري، وببيان أن كلمة الحق أمام سلطان ظالم تعدّ أفضل الجهاد، وهو سياق ترغيبي، وكان للدلالة غير المباشرة - من الكناية ومجيء النهي بمعنى الأمر - أثر في رفع قيمة المعنى ورسوخه.

فالمعاني الجزئية كلها أصل في بناء الشخصية المسلمة، حتى نصل لمجتمع متميز عقيدة وسلوكا، وهذا ذو أثر جيد للاستخلاف الذي سيكون محل نظر الله تعالى كما جاء في أول الخطبة .

فالعلاقة بين المعاني بعضها ببعض علاقة تتميم وتكميل، والعلاقة بين المعاني الجزئية كلها وبين مطلع الخطبة علاقة تفصيل بعد إجمال.

المطلب الثاني

وظائف المعاني في مطالع الخطب النبوية ووجه ارتباطها بمقصودها

أولا : مطلع خطبة النبي ﷺ في الحث على الصدقة.

ثانيا : مطلع خطبة النبي ﷺ في صفة الدنيا وأحوال الناس فيها.

اهتم النقاد بمقدمات الكلام، فجوّدها الشعراء والكتاب وحسّنوها ؛ لأنها رائدة لما بعدها، والمطلع مفتاح للاستماع لما بعده أو موصد عنه، ونقل أبو هلال العسكري عن بعض الكتاب أهمية الابتداء فقال: "سُئل بعضهم عن أحذق الشعراء فقال: من يتفقد الابتداء والمقطع".[1]

وقد يحتوي المطلع على مفتتح ثم يُتخلص منه إلى الموضوع، ويوصف المطلع ببراعة الاستهلال إذا ضُمِّن مقصود الكلام، وبراعة الاستهلال هذه هي التي قال عنها ابن

(١) العسكري، كتاب الصناعتين صـ٤٣٤.

المقفّع: "وليكن في صدر كلامك دليل حاجتك"، [١] وهذا يثبت ما للمطالع من أثر في التعبير عن مقاصد الكلام.

وانشراح النفس يحصل من المعاني الأُوَل التي يلقيها الملقي في وجه المخاطب، والنجاح يحصل بقبول النفس لهذه المعاني، ثم بحضورها في الذهن واستقرارها في النفس، فهدف كل مقال حصول الأثر، وهو رأس الهرم في الخطب عامة والنبوية خاصة.

ومطالع الخطب النبوية تختلف باختلاف مقاصدها وسيُظهر الدرس أثر تلك المعاني التي ضُمنت في المقدمات بما يتناسب مع مقصود كل خطبة.

أولا: مطلع خطبة النبي ﷺ في الحث على الصدقة: من قوله ﷺ: "{ يأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ} ...والآية التي في الحشر: { اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ }"[٢]:

تعد افتتاحية هذه الخطبة من أحسن الافتتاحات؛ لأنها تضمنت براعة استهلال، فقد افتتح المصطفى هذه الخطبة بقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ} {النساء(١)} ويُقصد بها الحث على التراحم والتكافل باعتبار وحدة الأصل والوشائج البشرية، تحت مظلة تقوى الله تعالى؛ لأنها الباعثة على صلاح اجتماع الناس والمصححة لمسارهم. والاجتماع والتكافل لازمان بمقتضيين، الأول: مقتضى التفضّل والإنعام من الخلق والانتساب للبشرية الظاهر من قوله تعالى: {الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ}، والثاني: مقتضى الجلال والعظمة الظاهر من ختم الآية: {إن الله كان عليكم رقيبا}. وأتبع ﷺ هذه الآية بقوله تعالى: { اتَّقُوا اللَّهَ

(١) الجاحظ، البيان والتبيين ١/١٠٩.

(٢) ينظر النص كاملا في مطلب: نمو المعاني وانسجامها في الخطبة الواحدة.

وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ } الحشر(١٨)} فابتدأت بنداء المؤمنين خاصة نداء تشريف وتكليف، وفيه حث على الاستماع لما بعده وهو الأمر بتقوى الله المتبوع بالأمر بالنظر في أمر الغد، والمقصود منه العمل لأجل الآخرة تحت مظلة تقوى الله تعالى؛ لأنها الباعثة على العمل الصالح.

هذا النداء وذاك التذكير كان الصحابة بحاجة إليهما أمام منظر تلك الوفود الفقيرة؛ تذكيرا لهم بصلتهم بالمرجع الواحد والأخوّة في الإسلام، وتحفيزا للبذل والعطاء، وتخليصا للنفوس من شحّها.

وتكرير الأمر باتقاء الله في الآيتين للاستهلال بهما في الخطبة يشير إلى أمور عدة، الأول: تأثّر النبي ﷺ بحال هؤلاء الوفود الذين ظهر عليهم الفقر المدقع، ويؤكده وصف الصحابي لحاله ﷺ حينما قال: "فتمعّر وجه النبي ﷺ "مما جعل تلكما الآيتين محلا للتعبير والتأثير؛ إذ الآيتان كلاهما مستهل جيد وقوي ينبئ بمعنى الخطبة العام من الأمر بالتكافل بين المسلمين لرابطة الدين. الثاني: رغبته ﷺ في رفع روح المسؤولية الفردية فالجماعية تجاه هؤلاء الوفود. الثالث: بيان أهمية الأمر الذي استعين فيه بهاتين الآيتين وجلله؛ وهو تنبيه النفوس المسلمة إلى ضرورة التواصل والتكاتف والتعاون وأنهم ليسوا كغيرهم من الناس.

صلة المطلع بمقصود الخطبة:

مطلع هذه الخطبة وثيق الصلة بمقصودها، ومقصودها هو: رفع مستوى شعور المسلم بأخيه المسلم، وتغذية المسلمين بمسؤوليتهم تجاه بعضهم، للوصول لتنمية روح التكافل فيما بينهم، مع بيان فضل المسارعة في كلّ. والآيتان الكريمتان المفتتح بهما هذه الخطبة هاديتان لهذا المعنى؛ فآية سورة النساء نبّهت على النسب الواحد، والأخوّة في الإسلام، قال السعدي: "وفي الإخبار بأنه خلقهم من نفس واحدة، وأنه بثهم في أقطار

الأرض مع رجوعهم إلى أصل واحد؛ ليعطف بعضهم على بعض، ويرقق بعضهم على بعض".[١] وهذا هو الجوهر الذي جعل هناك مناسبة للاستهلال بهذه الآية في هذه الخطبة بالذات "ليعطف بعضهم على بعض، ويرقق بعضهم على بعض"فهي آية تذكّر بواجب العطف وحق مساعدة المسلمين بعضهم على بعض؛ لذلك حسن موقعها في هذا المقام وأدت الغرض منها. أما آية سورة الحشر فهي "أصل في محاسبة العبد نفسه"[٢]؛ لذلك كان الإرداف بها بعد آية النساء مؤكدا لمعنى تنمية روح التكافل بين المسلمين والشعور بالمسؤولية تجاههم من وجه، ومؤسسا لمعنى جديد وهو ضرورة احتساب مثل هذه الأعمال للآخرة من وجه آخر.

والافتتاح بالذكر الحكيم أبلغ الافتتاحات وأعظمها، فأدّت الآيتان وظيفتهما من الاستهلال الحسن لمعاني الخطبة، وحفّزت الذهن على التفكير واستشراف المضمون، وكان لموقف الوفود وقدومهم أثر في ربط الذهن بين المطلع والمقصود، فمهّدت الآيتان الكريمتان لمعنى الخطبة، واستقبلتها النفس استقبال العارف الموقن بمعانيها، فوقعت المعاني موقعا جيدا في الصدر، ورسخت رسوخ الثوابت، وحصل التأثير المؤدي إلى الإقناع، وهذا كله ظاهر من استجابة الصحابة بالتصدّق بكومين من طعام وثياب .

---

(١) السعدي، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق ص١٦٣، ط١، ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠ م،مؤسسة الرسالة.

(٢) السابق ص ٥٣.

ثانيا: مطلع خطبة النبي ﷺ في صفة الدنيا وأحوال الناس فيها:

من قول أبي سعيد الخدري رضي الله عنه "خطبنا رسول الله ﷺ خطبه بعد العصر إلى مغيربان الشمس حفظها منا من حفظها ونسيها من نسي، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: ...فناظر كيف تعملون."(١)

صُدّرت هذه الخطبة بكلام الراوي أبي سعيد الخدري: "خطبنا رسول الله ﷺ خطبه بعد العصر إلى مغيربان الشمس حفظها منا من حفظها ونسيها من نسي، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أَمَّابعدُ " هذه التقدمة من راوي الحديث تشير إلى طول الخطبة من جهة، وتشير كذلك إلى تقديم الرسول ﷺ لهذه الخطبة بالحمد لله والثناء عليه، وهي مقدمة نمطية، ولكنها مهمة جدا في كل أمر، وتعد (أما بعد) فصل الخطاب، فهي تفصل الخطاب السابق عن اللاحق بفذلكة وانتقال جيد لا يُشعر بانقطاع المعاني، أو عدم انسجامها، ومجيئها يفيد التنبيه إلى أن الكلام الذي يليها هو المقصود بالذات، تلاها استهلال متعلق تعلقا مباشرا بمعاني الخطبة، وتقدير الكلام: أما بعد الحمد والثناء فإن الدنيا خضرة حلوة...، فجاء معنى زيف الدنيا وزخرفها معبّرا عنه بالصورة البيانية، حيث استعيرت حلاوة الفاكهة وإشراقتها للدنيا استعارة مكنية، لجامع الحلاوة واللذة والإشراق مع سرعة الزوال والفناء في كلّ، قال السيوطي: "العرب يسمي الشيء الناعم خضرا؛ تشبيها له بالخضروات في سرعة زوالها، ففيه بيان أنها غدارة وتفتن الناس بحسنها ولذتها"(٢)، ومن بلاغة الاستعارة بيان زيف زخرف الدنيا وسرعة فنائها، وهي تشي بالتحذير من الاغترار بها، واللهث خلف زينتها من وجه، وتشي

---

(١) ينظر النص كاملا في مطلب: نمو المعاني وانسجامها في الخطبة الواحدة.

(٢) السيوطي، شرح سنن ابن ماجه ٨٨/١، بدون ط. قديمي كتب خانة – كراتشي.

من وجه آخر بحقارة هذه الدنيا، وضرورة عدم إعطائها أكثر من حقها من القيام بواجب الاستخلاف الذي أمرنا الله به، ووضح رسولنا ﷺ المنهج فيه.

وهذا المعنى الاستعاري جاء بطريق الإخبار، وأُتبع بخبر آخر يكمّله ويتمم المقاصد فيه، وهو قول: "وإن الله مستخلفكم فيها، فناظر كيف تعملون"أي: "جاعلكم خلفاء من كان قبلكم، وقد أعطى ما في أيديهم إياكم فينظر كيف تعتبرون بحالهم وتتدبرون في مآلهم".[1]

ويعد هذا المطلع استهلالا حسنا لموضوع الخطبة، فذِكْر الدنيا وإشراقتها، والإخبار عن استخلاف الله لنا في الأرض مسدّد في أول الخطبة؛ لأن فيه إشارة إلى الموضوع المطروح في الخطبة، فكان خروجا سلسا إلى أول معاني الخطبة الذي يحذر فيه النبي ﷺ بطريق الصورة البيانية من الاغترار بجمال الدنيا والافتتان ببهجتها، وذكرها في بداية الخطبة مؤذن بأهمية وضع هذا نصب العين للاستخلاف الجيد الذي يأتي بيان منهجه مفصّلا في الخطبة كاملة فيما بعد.

صلة المطلع بمقصود الخطبة:

لما كان مقصود الخطبة وضع المنهجية والأطر العامة للقيام بمسؤولية الاستخلاف في الأرض بما يعود على المؤمن بالخير الكثير في الدنيا والآخرة؛ كان الإخبار بجمال الدنيا وفتنتها، وذكر استخلاف الله للناس في الأرض مع مراقبته أعمالهم فيها وثيق الصلة بمقصودها، ومسهما في التمهيد لذلك الغرض وسيرورته، وهذا الحديث عن الدنيا يذكرنا بضرورة الإحسان فيها مع عدم الاغترار بها؛ لسرعة فنائها، فالمطلع قام بوظيفة

(١) الطيبي، شرح الطيبي على مشكاة المصابيح ٦٦٩/٢ .

التمهيد لمقصود الخطبة وهيّأ له، فوقعت المعاني بعده موقعا راسخا في النفس، وأتت الأفكار كالسلسال منسابة دون تعقيد أو تكدير إلى أن وصلت إلى ختام السورة .

المطلب الثالث

أثر معاني خواتيم الخطب النبوية وصلتها بالمطالع :

أولا : خطبة النبي ﷺ في الحث على الصدقة.

ثانيا : خطبة النبي ﷺ في صفة الدنيا وأحوال الناس فيها.

التناسب في كل نصّ من الاتساق، وحتى يكون الاتساق بين أجزاء الخطبة لا بد من ترابط أجزائها من مطلع وموضوع وخاتمة، مع حسن ترتيب المعاني في كل، قال أبو هلال العسكري في ذلك: "وينبغي أن تجعل كلامك مشتبهاً أوله بآخره، ومطابقاً هاديه لعجزه، لا تتخالف أطرافه، ولا تتنافر أطراره ".[(١)]

والخواتيم تركيز وتكريس لمقاصد الخطبة، وكأنها تعلن التمام لترسيخ المعنى المراد إيصاله، قال ابن رشيق في أهمية الخواتيم :"الانتهاء قاعدة القصيدة وآخر ما يبقى منها، وسبيله أن يكون محكما لا يمكن الزيادة عليه ولا يأتي بعده بأحسن منه، وإذا كان أول الشعر مفتاحا له وجب أن يكون الآخر قفلا عليه".[(٢)] وقول ابن رشيق هذا مركّز جدا، حيث أوجز ذكر أهمية الخاتمة في كونها آخر ما يبقى في الذهن، وحتى يتحقق هذا الغرض لابد أن تكون الخاتمة محكمة بحيث لا يمكن الزيادة عليها، وهذا ما يسمّيه النقاد شفاء النفس من المعنى، فلا تستشرف إلى الزيادة بعده ؛ بل إنه يشير إلى

---

(١) العسكري، كتاب الصناعتين ص١٤١-١٤٢.

(٢) ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده١/١٣٩، حققه: محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت/لبنان.

ضرورة ربط المطلع بالمقطع بعلاقة وثيقة ترجع كل منهما إلى الآخر بوجه من وجوه التناسب، وهذا ذو أثر فاعل في نسق المعاني وتماسكها.

والخواتيم ذات أثر نفسي على المتلقي قال القرطاجنّي في ذلك : " إنما وجب الاعتناء بهذا الموضع، لأنه منقطع الكلام وخاتمته، فالإساءة معفية على كثير من تأثير الإحسان المتقدّم عليه في النفس، ولا شيء أقبح من كدر بعد صفو وترميد بعد إيضاح "، [(١)] فرعاية الخاتمة مهمة للمتلقي من حيث تركيز المعاني فيها الذي يخلّف رسوخا لها في الصدور، ومن حيث تتميم الإحسان الذي في معاني المطلع ،ومن حيث تكميل الإيضاح والبيان في معاني النص من أوله إلى آخره، وهذا كله يخلّف شفاء للنفس بحيث لا تتطلع إلى مزيد من المعاني، ويخلّف انسجاما وتماسكا بين أجزاء النص.

وخواتيم الخطب النبوية جاءت على التمام في الإجمال والإحسان والإيضاح، وهي على طرائق وأساليب عديدة تتسق مع مقاصدها الكلية، وبناء معانيها كان على وجه من التصريف، أوالتكميل أوالتقعيد، فيُذكر مجمل القول في المعاني المطروحة ومواضع المفصل فيها بأسلوب مجمل وأثر نفسي قد لا يظهر إلا لمتدبّر، وتُعين معرفة الابتداءات والمعاني الجزئية والكلية على تحديد مواقع الخواتيم في الكلام.

أولا : خاتمة خطبة النبي ﷺ في الحث على الصدقة :

تقع الخاتمة في قول رسول الله ﷺ : "مَنْ سَنَّ ... مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ "[(٢)]: قال الصنعاني : "فيه الحث على الاقتداء بالخيرات وسن السنن الحسنات ... وقوله : من سن سنة سيئة... هذا تحذير من الابتداع بقبائح الأعمال".[(٣)] فعرّض الرسول ﷺ في آخر الخطبة

(١) القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الآدباء صـ ٣٠٦،بدون ط، بدون ت، بدون د .

(٢) ينظر النص كاملا في مطلب: نمو المعاني وانسجامها في الخطبة الواحدة .

(٣) الكحلاني، محمد بن إسماعيل بن صلاح الحسني،كتاب التحبير لإيضاح معاني التيسير،حققه =

بفضل أول المبادرين من صحابته لفعل الصدقة، وأسبقهم إليها، ومقصود هذا التعريض بيان عظم ثواب المبادر بفعل الخيرات للحث على الفعل نفسه، ثم إنه لما أردف فقال ﷺ : "من سن سنة سيئة..."عرّض بعظم ذنب أول المبادرين بفعل الأمور السيئة، وأسبقهم إليها، ومقصوده الحث والتحريض على تجنب البدء بالسيئة وعدم التصدّر لها. ومما أبرز تلك المقاصد السامية، المقابلة بين معنى السنة الحسنة والسيئة، وما يترتب على كلّ من عظم الثواب أو عظم الذنب مع حفاظ التابعين على ثوابهم من العمل الصالح، أو إثمهم من العمل السيئ.

والمتأمل لهذه الخاتمة يجد أنها اشتملت على تركيز لمعاني الخطبة كلها ؛ حيث تآخت المعاني وتجاورت فيما بينها بين مطلع حوى براعة استهلال جاء الحث فيه على تقوى الله، ومراعاة الأرحام والأخوة في الإسلام، وبين طرح للموضوع بطلب الصدقة من أي نوع كان، وذلك بإيراد الخبر الذي يحمل معنى الإنشاء، وسبيل الكناية التي توازن معنى الحث على الصدقة بإضافة معنى، وهو: ومن أيّ حجم كانت فكمل المعنى بذلك، ثم جاءت الخاتمة لتؤكد معنى الحث على البذل والتصدق، وتؤسس معنى جديدا عاما تقعيديا ؛ ببيان أن السنة الحسنة في الإسلام ذات أجر عظيم لفاعلها والمبادر بها خصوصا دون نقصان أجر التابعين له، وفي المقابل فإن السنة السيئة في الإسلام ذات إثم عظيم لفاعلها والمبادر بها خصوصا دون نقصان إثم التابعين له .

وهذا الختام القوي التقعيدي يترك أثرا في النفس من عدة جوانب، أولها:

=

وخرج أحاديثه وضبط نصه: محمد صبحي بن حسن حلاق ٦/٤٢٠ ، ط١، ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م، مكتبة الرشد-الرياض /السعودية.

إن هذا الختام بمثابة قاعدة وركيزة في الإسلام لكل الأعمال، وقد جاءت هذه القاعدة بعد تجاور عدة معانٍ، والمعنى التقعيدي أكثر رسوخاً من المعاني المتعددة، ولو تآخت وانسجمت.

ثانيها: أن هذه الخاتمة من حيث الموقف تركت أثرا على الرجل الذي سبق إلى الامتثال والعمل الصالح ببيان عظم أجره، وإضافة أجر كل العاملين بعمله إلى يوم القيامة، وهذا أدعى لمحاولة السبق كل مرة في الأعمال الصالحة، وتركت أثرا على التابعين لعمله لأن أجرهم حاصل ولا ينقص حتى مع عدم سبقهم إليه وهذا أدعى إلى الاستمرارية على العمل الصالح، بل هو أدعى لأن يكونوا السبّاقين يوما ما، ومن حيث المتلقي فهي قاعدة وركيزة لكل أعماله سواء كانت خيرا أم شرا ، ولذلك كان قول الرسول ﷺ : "ومن سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها " تكميلا للمعنى، فلا حاجة له في مقامه، ولكن الحاجة إليه لإقامة القاعدة وبنائها بناءً كاملاً لا يجعل للنفس استشرافا لما بعدها .

ثالثها: بيان معرفة الرسول ﷺ بالنفسيات والفروق الفردية حين وازن الحديث، فأثنى على السابق منهم واللاحق كذلك، وحفظ لكلٍّ فضله ومنقبته .

صلة الختام بمطلع الخطبة:

يقول القاضي عياض عن صلة هذا الختام الجيد بمطلعه: "وذكره هذا الفضل في آخر حديث الوفد المجتابي النّمار لقوله في أوله: (فجاء بصرة كادت كفه تعجز عنها ... إلى قوله: ثم تتابع الناس)فكان الفضل للبادي وللسابق الذي اقتضى من بعده فعله، واستن بسنته".[1] وكلامه هذا يشي بوشائج بين المعاني، كيف تتقارب وتتآخى، ويعود

(١) القاضي عياض، عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي، كتاب شرح صحيح مسلم المسمى إكمال المعلم بفوائد مسلم، تحقيق: يحيى إسماعيل ٣ / ٥٤١، ط١، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ =

بعضها على الآخر، وكأنه قال: إن سبب التقعيد للخطبة بهذا المعنى هو التحفيز والتشجيع لعمل الرجل المبادر في أول الخطبة وجعله نموذجا يُحتذى به. ومن صلة الختام بالمطلع كذلك أنه لما افتتح المصطفى ﷺ هذه الخطبة بالآيات الدالات على الأمر بتقوى الله في أرحامنا الذين تربطنا بهم رابطة النسب، وإخواننا الذين تربطنا بهم رابطة الأخوة، وثنّى بما يدل على الأمر بتقوى الله في الأمور كلها عامّة لتحقق الحساب الأخروي، فخصّ ثم عمّم؛ جاء الختام قُفلا جيدا لهذا المفتتح، فمن يتقِ الله ويعمل صالحا سيلقى جزاءه، ومن يعمل سيئا سيلقى جزاءه أيضا، فأشار في الافتتاح إلى المقاصد، وجاء في الختام فكرّس المعنى وفصّل فيما كان مجملا، فتمّم ثم كمّل، وكان للمقابلة بين المعنيين أثر في هذا التكميل، وإظهار لحسن المعنى.

ثانيا: خاتمة خطبة صفة الدنيا وأحوال الناس فيها:

من قوله ﷺ: " ألا إن مثل مابقي ... فيما مضى منه"[1]: علّق الراوي قبل الخاتمة بقوله: " فلما كان عند مغيربان الشمس"وهذا يساعد في تحديد خاتمة الخطبة ويبرزها كثيراً، ومن وجه آخر فإن هذه المقولة تبيّن طول هذه الخطبة بدليل قول الراوي في أول الخطبة: "خطبنا رسول الله ﷺ خطبة بعد العصر إلى مغيربان الشمس حفظها منا من حفظها، ونسيها من نسي".

والمتأمّل في هذه الخاتمة يلحظ أنها تجمع معاني الخطبة بتركيز؛ فحين ابتدأت الخطبة بالتحذير من الدنيا وزينتها، وأن الإنسان مستخلف فيها وعليه أن يحسن الاستخلاف؛ أبانت ابتداءً عن أن العبرة في العقيدة بالخواتيم، ثم بيّنت شيئا من

=

م، دار الوفاء/ مصر.

(١) ينظر النص كاملا في مطلب: نمو المعاني وانسجامها في الخطبة الواحدة.

السلوك المعين على الاستخلاف الجيد في المعاملات الودية والتجارية بين الناس، وتدرّجت منه إلى السلوك المعين على الاستخلاف بين أفراد المجتمع وبين حاكمهم، إلى أن وصلت إلى الختام ببيان أن الوقت أزف وأن نهاية الدنيا قد اقتربت، فشُبّه مابقي من زمن الدنيا بالنسبة لما ذهب من زمنها بما بقي من هذا اليوم الذي قيلت فيه الخطبة بالنسبة لما مضى من زمنه؛ لجامع: قلة الزمن الباقي بالنسبة للذاهب منه، ومن بلاغة التشبيه بيان مقدار المشبه، وتصوير قلّة مابقي من زمن الدنيا بالنسبة لما ذهب منه، ومجيئ لفظ الدنيا يخدم هذا المعنى، إذ هو من القرب والدناوة، والمقابلة بين الزمنين زادت المعنى جلاءً.

وتأخير التشبيه ليكون ختام الخطبة يسهم في إيصال المعنى أكثر، ولعل الحال الناطق بالمعنى له أثر وجداني على السامعين، وبه يتحقق الغرض من الخطبة ويحصل الاقتناع بمعانيها من أولها إلى منتهاها.

صلة الختام بمطلع الخطبة:

إذا كنا قد اعتبرنا الحمد والثناء مطلعاً نمطياً، وبداية الخطبة استهلالا جيدا لموضوعها، فإننا نستطيع أن نلمس الصلة والعلاقة بين هذا الاستهلال وذاك المقطع، فبداية الخطبة تحذير من الدنيا وزينتها، وبيان أن الدنيا لم تكن عبثا إنما الأصل فيها الاستخلاف وابتلاء الناس، وختام الخطبة تذكير بقصر الدنيا وقرب قيام الساعة؛ فالمعنى ينبئ عن ضرورة الاستعداد والقيام بمنهج الاستخلاف الجيد، والصبر على ذلك لقرب قيام الساعة، فلم يبقَ من الدنيا مثل ما مضى منها.

فعاد معنى التشبيه في آخر الخطبة على معنى الاستعارة في أولها حين قالﷺ: "ألا إن الدنيا خضرة حلوة"، وجاء المعنى في الأخير ليؤكد المعنى في الأول من وجه، وليؤسس لمعنى جديد وهو قرب قيام الساعة، وهذا من تآزر الصور البيانية وعود بعضها على

بعض وتعاضدها لإبراز المعنى والوفاء بالغرض، فانطبق الختام على الافتتاح بما لا يدع مجالا للشكّ أن المعاني في الخطبة النبوية جاءت على التمام والكمال في التناسب والترتيب .

❖ ❖ ❖

الخطب النبوية التي تمّ التطبيق عليها بالنظر والاستبصار :

- قام فقال : أمَّا بَعْدُ أَيُّها النّاسُ ،فَإِنَّ النَّاسَ يَكْثُرُونَ ،وتَقَلُّ الأَنْصَارُ حَتَّى يَكُونُوا كَالِملْحِ فِي الطَّعَامِ ، فَمَنْ وِلِيَ...

- فحمد الله و أثنى عليه، ثم ذكر ما لقى من قومه قال حَتَّى مَكَثْتُ أَنَا وَصَاحِبِي بضْعَةَ عَشَرَ يَومًا مَا لَنَا طَعَامٌ إِلاَّ اَلْبَرِيَر – والبرير ثمر الأراك – فَقَدِمْنَا عَلَى إِخْوانِنا مِنْ اَلأَنْصَارِ، وَعِظَمُ طَعَامُهُم اَلتَّمرُ..

-صعد ﷺ يومًا الصفا فقال : " يا صَبَاحَاه ، يَا صَبَاحَاه قال: فاجتمعت إليه قريش فقالوا له: مالك، فقال: أَرَأَيتُم لَوْ أَخْبَرتُكُم أَنّ العَدوَّ مُصَبّحُكُم أَوُ مُمَسِّيكُم أَمَا كُنْتُم تُصَدّقُونِي ...

- خطب أيام التشريق فقال : " لاَ يَدْخُلُ الجَنَّةَ إِلاَّ نَفْسٌ مُسْلمةٌ، وَإِنَّ هَذِهِ اَلأَيّامَ أَيَامُ أَكْلٍ وَشُرْبٍ "

- خطب فقال :وأعدوا لهم مااستطعتم من قوة" ألا إن القوة الرمي ...

- فقام رسول الله ﷺ فقال: " إِنْ تَطْعَنُوا فِي إِمْرتِهِ فَقَدْ كُنْتُم تَطْعَنُونَ في إِمْرَةِ أَبيه مِنْ قَبْلُ ...

- خطبنا رسول الله ﷺ حتى أسمع العواتق في الخدور ينادي بأعلى صوته: "يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ...

- قام فينا رسول الله ﷺ خطيبًا بموعظة فقال: " يَا أَيُّهـا النَّاسُ ، إِنَّكُم تُحْشَرُونَ إِلَىَ اَللهِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ أَلَا وَإِنَّ أَوَّلَ اَلْخلَائِقِ...

- فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : " أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنِّي أَنْكَحْتُ أَبَا العَاص اِبنَتِي فَحَدَّثَنِي فَصَدَّقَنِي...

- أَمـّا بَعـدُ، فَـإَنّ أَهْـلَ اَلشّـركِ والأَوْثـانِ كَـانُوا يَـدْفَعُونَ مِـنْ هَـاهُنَا عِنْـدَ غُـرُوبِ اَلْشَّمْسِ، حِينَ تَكُونُ ...

- حمد الله وأثنى عليه ثم قال: "إِن مَكَةَ حَرَّمَهَا الله وَلَمْ يُحَرّمَهَا النَّـاسُ، فَلاَ يَحِـلُّ لاِمْرِئٍ يُؤْمنُ بِالله...

- ثم قام فاختطب فقال: " إنّما هَلَك الذّينَ مِنْ قَبلِكُم أَنّهُـم كَـانُوا إذَا سَرَق فِيهِم الشَّريفَ تَرَكُوهُ...

- خطبنا رسول اللهﷺ وهوعلى ناقته فقـال: " أَلاَ إِنَّ الصَّـدَقَةَ لَـا تَحِلُّ لِي وَلَـا لأَهْلِ بَيتِي..

- فخطب الناس فقال في كسوف الشمس والقمر: " إِنَّهُماَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللهِ، لاَ يَخْسِفَان لِمَوْتِ...

-قال وهو على المنبر، وهو يذكر الصدقة والتعفف عن المسألة: "اَلْيَدُ العُلْيَا خَيْرٌ مِن اليدِ السُّفْلَى...

- خطبنا النبي ﷺ يوم الأضحى بعد الصلاة فقال: "إِنَّ أَوَّلَ مَا نَبْدَأُ بِهِ فِي يَوْمِنَا هَذَا أَنْ نُصَلِّيَ...

- قال: خطبنا رسول الله ﷺ بعرفة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: " أَمّا بَعدُ، فَإنّ أَهْلَ اَلشّركِ والأَوْثانِ كَانُوا يَدْفَعُونَ مِنْ هَاهُنَا عِنّدَ...

- خطبنا فقال: " إِنّي تَارِكٌ فِيكُم كِتَابَ اللهِ هُو حَبْلُ اَللهِ ؛ مَن اتَّبَعَهُ كَانَ عَلَى اَلْهُدَى...

- قام فينا رسول الله ﷺذات غداة، فوعظنا موعظة وجلت منها القلوب، وذرفت منها الأعين قال: فقلنا يا رسول الله، قد وعظتنا موعظة مودعفاعهد إلينا قال: عَلَيكُم بِتقْوىَ الله -أَظنُّه قَال – والسَّمعِ

- خطبنا رسول الله ﷺفقال: نَضَّرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا فَبلَّغَهُ كَمَا سَمِعَهُ، فَرُبَّ مُبَلِّغٍ...

- خطب رسول الله ﷺالناس وقال: " إِنَّ اَللهَ خَيَّرَ عَبْدًا بَيَنَ الدُّنْيَا وَبَينَ مَا عِنْدَهُ، فَاخْتَارَ ذَلِكَ اَلعَبْدُ..

-فقام رسول الله ﷺ فاستعذر يومئذ من عبد الله بن أبيّ بن سلول ، قالت فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر: " يَا مَعْشَرَ المسْلِمِينَ ، مَنْ يَعْذُرُنِي مِنْ رَجُلٍ قَدْ بَلَغَنِي أَذَاهُ فِي أَهْلِ بَيتِي ..

- صعد المنبر، وأمر أن يُنادى: الصلاة جامعة ، فقال: " ألاَ أُخْبركُمْ عَنْ جَيْشِكُمْ هَذَا الغَازِي ؛ اِنْطَلَقُوا فَلَقوا العْدُوَّ ، فأُصِيبَ زَيْدُ ، اسْتَغْفُروا له - فاستغفر له الناس - ثُمَ أَخَذَ اللِّواءَ جَعْفَرُ...

- فخطبهم فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال: " يَا مَعْشَرَ الأَنْصَار، أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلاَّلاً فَهَداكُمُ اللهُ بِي؟...

- أَمّا بَعدُ، فَوَالله إِنِّي لَأُعطِي الرّجُلَ وَأَدَعُ الرَّجُلَ ، والذّي أَدَعُ أَحَبُّ إِليّ منَ الذِي أُعْطِي، ولَكَنْ ...

- فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : " أُوصِيكُم بِالأَنْصَارِ ، فَإِنَّهُم كَرِشِي وَعَيْبَتِي ، وقَدْ قَضَوا...

-خطبنا رسول الله ﷺفأسند ظهره إلى قبة أدم فقال : " أَلاَ لاَ يَدْخُلُ الجَنَّةَ إلاَّ نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ ، اللهُمّ هَلْ بَلّغْتُ؟ اللهُمَّ اِشْهَد ! أَتُحِبِّونَ أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهَلِ الجَنَّةِ ؟...

- خطبنا رسول الله ﷺفقال : " إِيّاكُم وَ الظُلمَ ، فَإِنَّ الظُلْمَ ظُلُمَاتٌ يَومَ القِيَامَةِ ، وَإِيّاكُمْ وَالفُحْشَ...

- قام فينا رسول الله ﷺفقال : " وَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ لَا يَحِلُّ دَمُ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَأَنِّي رَسُولُ الله إِلاّ ثَلاَثَةُ نَفَرٍ : التَّارِكُ الإِسْلاَمَ المفَارِقُ لِلجَمَاعَةِ ..

- سمعت النبي ﷺعام الفتح وهو قائم يقول :" أَيُّهَا النَّاسُ ، مَا كَانَ مِنْ حلْفٍ في الجَاهِلِيةِ فَإِنَّ الإِسْلاَمَ لمَ يَزِدْهُ إلاّ شِدّةً ولاَ حلْفٍ في الإِسْلاَمِ ، وَالمُسْلِمُونَ يَدٌ علَى مَنْ سِوَاهُمْ...

- خطب فقال :" أَيُّمَا رَجُلٌ مِنْ أُمّتِي سَبَبْتُهِ فِي غَضَبِي أوْ لَعَنْتُه لَعْنَةً ، فَإِنَّما أَنَا مِنْ وَلَدِ آدم أَغْضَبُ كَمَا

- أن النبي ﷺخطب في حجته فقال : " أَلاَ إنّ الزَّمانَ قَد اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَومَ خَلَقَ اللهُ السَّماَواتِ...

-حتى إذا زاغت الشمس أمر الرسول بالقصواء فرحلت له فأتى بطن الوادي فخطب الناس وقال : " إِنَّ دِماَءكُم وَأَمْوَالَكُم حَرَامٌ عَلَيكُم كَحُرْمَةِ يَومِكُم هَذَا ، في شَهْرِكُم هَذَا ، فِي بَلَدِكُم هَذَا . أَلاَ كُلُّ شَيءٍ ...

- خطبنا رسول الله ﷺ وهو على ناقته فقال : " أَلاَ إِنَّ الصَّدَقَةَ لَا تَحِلُّ لِي وَلَا لأَهْلِ بَيتِي وأخذ وبرة...

- ثم قام فاختطب فقال: " إنّما هَلَك الذّينَ مِنْ قَبلِكُم أَنّهُم كَانُوا إذَا سَرَق فِيهِم الشَّريفَ تَرَكُوهُ، وَإِذَا...

- خطب رسول الله ﷺ: فقال : " أَيُّهَا النّاسُ ، إِنّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ فَرَضَ عَلَيكُم الحجَّ، فَحُجُّوا – فقال رجل: أكل عام يا رسول الله ؟فسكت حتى قالها ثلاثاً ...

- يخطب ، وذكر الناقة والذي عقر، فقال رسول الله :﴿إذَا انْبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾انْبَعَثَ لَهَا رَجُلٌ عَزِيزٌ، عَارِمٌ ،مَنِيعٌ فِي رَهْطِه، مِثلُ أَبِي زَمْعَةَ – وذكر النساء – فقال : يَعْمِدُ أَحَدكُمْ يَجلِدُ امْرَأَتَهُ جَلْدَ...

-قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات فقال : " إِنَّ اَللهَ عَزَّ وَجَلّ لَا يَنَامُ وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ ، يَخْفِضُ القِسْطَ وَيَرْفَعُهُ ، يُرْفَعُ إِليهِ عَمَلُ اللَّيلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ...

- ثم انصرف إلى المنبر فقال : " إِنّي فَرَطٌ لَكُم وَأَنَا شَهِيدٌ عَلَيكُم ، وَإِنّي وَاَللهِ لَأَنْظُرُ إِلِىَ اَلحوضِ أَلَا وإِنّي قَدْ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِ اَلْأَرْضِ..

- فحمد الله وأثنى عليه ، ثم ذكر المسيح الدجّال فأطنب في ذكره، وقال: "مَا بَعَثَ اللهُ مِنْ نَبِي إِلاَّ أَنْذَرَهُ أُمَّتَهُ، أَنْذَرَهُ نُوحُ وَالنَّبِيونَ مِنْ بَعْدِهِ ، وإِنَّهُ فَمَا خَفَي عَلَيْكُمْ مِنْ شَأنِهِ فَلَيسَ يَخْفَى...

-فحمد الله (عز وجل) النبي ﷺوأثنى عليه ،ثم قال : " مَا مِنْ شَيءٍ لَمْ أَكُنْ أُرَيتهُ فِي مَقَامِي ، حَتَّى الجَنَّةَ وَالنَّارَ ، فَأُوحِيَ إِليَّ أَنَّكُم تُفْتَنُونَ فِي قُبُورِكُمْ مِثْلَ أَوْ قريبًا – لا أدري أي ذلك قالت أسماء...

- فلما سلم ،قام النبي ﷺفقال : " أَرَأَيْتَكُمْ لَيْلَتَكُمْ هَذِهِ ؟ فَإِنّ رَأْسَ مِائَةٍ لَا يَبْقَى مِمَّنْ هُو اَلْيَومَ عَلَى...

- فخطب الناس فحمد الله وأثنى عليه ،ثم قال :" إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آياتِ اَللهِ لاَ يَنْخَسِفَانِ لِموتِ أَحدٍ وَلاَ لِحيَاته ،فَإِذَا رَأَيْتُم ذَلِكَ فَادْعُوا اللهِ وَكَبِّروا وَصَلّوا وَتَصَدّقُوا...

-خطب النبي ﷺ النساء ذات يوم ، فوعظهن وأمرهن بتقوى الله والطاعة لأزواجهن وقال : " إِنَّ مِنْكُنّ مَنْ تَدْخُلُ اَلجنّةَ...

- فحمد الله وأثنى عليه بما هو له أهل، ثم قال : " أَمّا بَعدُ، فَإِنّ أَصْدَقَ الحَدِيثِ كِتَابُ اَللهِ، وَإِنَّ أَفْضَلَ الهَدي هَدْيُ مُحمَّدٍ، وَشَرُ الأمُورِ مُحْدَثَاتُها، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةُ - ثم يرفع صوته وتحمر وجنتاه...

- سمعت رسول الله ﷺيقول وهو على المنبر : " أَلاَ إِنَّ الفِتْنَةَ هَا هُنَا – يشير إلى المشرق – مِنْ حَيْثُ يَطْلُعُ قَرْنُ الشَّيْطَانِ. "

- قال رسول الله ﷺوهو على المنبر: " إِنّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيكُم مَا يُخْرِجُ اللهُ مِنْ نَبَاتِ اَلأَرْضِ، وَزَهْرَةِ الدُّنْيَا " فقال رجل: أي رسول الله، أويأتي الخير بالشر ؟! فسكت حتى رأينا أنه ينزل عليه...

- يخطب على المنبر يقول: " اقْتُلُوا الحيَّاتِ، وَاقْتُلُوا ذَا الطُفْيَتَين والأَبْتَرَ، فَإِنَّهُمَا يَطْمِسَانِ اَلْبَصَرَ...

- قام فينا النبي ﷺ فذكر الغلول فعظّمه وعظّم أمره، فقال: " لاَ أُلْفِينَّ أَحَدَكُمْ يَومَ القِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتهِ شَاةٌ لَهَا ثُغَاءٌ علَى رَقَبَتِهِ فَرَسٌ لَهاَ حَمْحَمَةٌ يقول : يَا رَسُولَ اللهِ ، أَغِثْنِي...

❖ ❖ ❖

الخاتمة

الحمد لله حمدا تتناسب فيه المعاني وتتراتب احتفاءً بنعمائه وأفضاله، وصلاة وسلاما على محمد بن عبد الله خطيب الأمة الإسلامية الأول، وبعد...

فتعد الخطابة مجالا خصبا لدراسة تناسب المعاني وترتيبها وتراتبها، وللسياق أثر كبير في وضوح هذه الدراسة، ولعل أبرز النتائج ما يلي:

-التناسب والترتيب وثيق الصلة بالسياق وقرائن الأحوال؛ وبينهما علاقة تفاعلية، والسياق كليّ، والترتيب يتأثر به ويعبّر عن مكنوناته ودلالاته عبر منظومة متكاملة ومنهج معين.

-التخييل عنصر مهم في الخطب النبوية ويخضع لنظام نسق المعاني في الخطبة ذاتها، جاء التخييل في الخطبة النبوية عفو الخاطر، ولكنه ذو نظام، ومنهج، ونسق متناغم، منسجم مع معاني ومباني الخطبة النبوية.

- تنعطف معاني الصورة البيانية في الخطبة على بعضها لتؤكد معنى سابقا وتؤسس معنى جديدا، كما تتعاضد الصور وتتآزر فيما بينها للوفاء بالمقصود العام في الخطبة.

- التأمل وترديد النظر في الخطب النبوية -أعني الاثنين والخمسين خطبة -يبيّن أن بناء عناصر الخطبة يقوم على المقدمة والعرض والخاتمة، وقد تحتوي المقدمة على استهلال، وقد يُحذف أحد أجزاء الخطبة أو يُطوى من المقدمة أو الخاتمة؛ إذا كان هناك ما يدل عليه.

-قد تتكون الخطبة النبوية من مقدمة نمطية من الحمد والثناء يعقبها استهلال فعرض وخاتمة، وتارة مقدمة نمطية فعرض للموضوع مباشر وخاتمة، وأخرى مقدمة فعرض دون خاتمة، لوجود ما يدل على انتهاء القول.

-المعاني تتجاور وتتجاذب في الخطبة الواحدة في نسق عجيب محكم للسير نحو المقصود الأعظم فيها، وقد تحتوي الخطبة على معانٍ جزئية تتلاحم فيما بينها مكوّنة معاني كليّة تدور كلها حول محورها الرئيس، هذه المعاني تتصاعد وتتنامى حسب إيجاز الخطبة وسير معانيها لتحقق الغرض وتفي بالمقصود.

-النظر في أجزاء القول وترتيبه أصل في معرفة نسق المعاني وترتيبها في الخطبة النبوية؛ ليدرك الذهن الصلات بين الأجزاء، كيف تعاطفت على بعضها واتسقت، وكيف ترتبت وتراتبت، ثم كيف وفّى ذلك كله بالمقصود الأعظم، وكيف دلّ الكلام أوله على آخره، وانعطفت الأطراف على الوسط، وعاد المقطع على المطلع في توافق عجيب بين الأجزاء، وانسجام رصين بين المعاني، يتبعهما إحكام في المباني وتناسق.

-لمطلع الخطبة النبوية وظائف معينة تتصل بوجه من الوجوه بمقصود الخطبة النبوية، غالبا تمهّد له أو تجمل معانيه أو تشير إليه، وهي تؤدي وظائفها منخرطة غير معزولة عن سياق الخطبة كاملة .

-لخواتيم الخطبة النبوية أثر نفسي على المتلقي من ترسيخ المعنى وتركيزه، وغالبا تؤكد معنى سابقا وتؤسس معنى جديدا، ومعانيها تعود على مطلع الخطبة وتنطبق عليه في انسجام تام مع بقية أجزاء القول في الخطبة.

التوصيات:

توصي الباحثة بدراسة ترتيب المعاني في كلامه ﷺ في الحديث النبوي، ثم نسقها في الحديث القدسي، والوصايا، وأثر كل نسق في سياقه وموضوعه، ومقارنة هذا كله بنسق الخطبة النبوية، لمعرفة هل تتكامل الأنساق مع بعضها وتتكافأ، أم تستقل وتتفاضل؛ للخروج بصورة كاملة عن نظام نسق البيان النبوي الشريف .

قائمة المصادر والمراجع

[١] ابن الأثير، كتاب المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد ،بدون ط، ١٤١٦ه -١٩٩٥م، المكتبة العصرية /صيدا - بيروت.

[٢] ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، حققه: محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت/لبنان.

[٣] ابن فارس، أبو الحسن أحمد بن زكريا، مقاييس اللغة، تحقيق وضبط: عبد السلام محمد هارون، بدون ط، دار الجيل - بيروت .

[٤] ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، ط٣ ،١٤١٤هـ -١٩٩٤م ،دار صادر /لبنان - بيروت .

[٥] أبو اسحاق الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، تحقيق: عبد المنعم إبراهيم، ط١، ١٤١٨ هـ -١٩٩٧م المملكة العربية السعودية / مكتبة نزار مصطفى الباز - مكة المكرمة .

[٦] أحمد بن حنبل، أبو عبد الله الشيباني . مسند الإمام أحمد بن حنبل، بدون طبعة. مؤسسة قرطبة ـ مصر.

[٧] أرسطو.الخطابة. الترجمة العربية القديمة.حققه وعلّق عليه: عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات / الكويت. دار القلم / بيروت. ١٩٧٩م.

[٨] الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب، إعجاز القرآن، قدّم له وشرحه وعلق عليه: محمد شريف سكر ، ط٣ ١٤١٥هـ -١٩٩٤م ، دار إحياء العلوم –بيروت .

[٩] البقاعي، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، خرّج آياته وأحاديثه ووضع حواشيه : عبد الرزاق غالب المهدي، ط٢٠٠٣ ،٢م١٤٢٤هـ، دار الكتب العلمية /بيروت - لبنان.

[١٠] الجاحظ، أبو عثمان، البيان والتبيين، حققه: حسن السندوي ، بدون ط، ١٩٩٠ م، دار المعارف - تونس.

[١١] الجمحي، محمد بن سلام، طبقات فحول الشعراء، شرح: محمود شاكر، بدون ط، بدون ت، مطبعة المدني/ القاهرة.

[١٢] الحسني ، محمد بن إسماعيل بن محمد .كتاب التحبير لإيضاح معاني التيسير.حققه وخرج أحاديثه وضبط نصه: محمد صبحي حَلّاق. ط١. ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م.مكتبة الرشد -الرياض/السعودية .

[١٣] الحسني ، محمد بن إسماعيل بن محمد .كتاب التنوير شرح الجامع الصغير، المحقق: د. محمَّد إسحاق إبراهيم.ط١ . ١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م مكتبة دار السلام - الرياض.

[١٤] الساعاتي، أحمد عبد الرحمن البنا، كتاب الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، ط١، بدون ت، دار إحياء التراث العربي. [١٥] السعدي، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق ، ط١، ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠ م، مؤسسة الرسالة.

[١٦] السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، الإتقان في علوم القرآن، قدّم له وعلّق عليه :محمد شريف سكر السيوطي ،راجعه: مصطفى القصاص، ط٢ ،١٤١٦هـ -١٩٩٦م،دار إحياء العلوم –بيروت /مكتبة المعارف – الرياض.

[١٧] السيوطي، شرح سنن ابن ماجه، بدون ط، قديمي كتب خانة - كراتشي .

[١٨] الشاطبي، أبو اسحاق الموافقات في أصول الشريعة .تحقيق: عبد المنعم إبراهيم، ط١ ، بدون ت، بدون د.

[١٩] صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، بدون ط، بدون تاريخ، مكتبة لبنان، الشركة المصرية العالمية للنشر / لو نجمان.

[٢٠] الطبري أبو جعفر، محمد بن جرير بن يزيد بن خالد، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ١٤٠٥ هـ - بدون ط، دار الفكر.

[٢١] الطيبي، شرف الدين الحسين بن عبد الله، شرح الطيبي على مشكاة المصابيح المسمى بالكاشف عن حقائق السنن، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، ط ١، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة /الرياض.

[٢٢] العسكري، كتاب الصناعتين، الكتابة والشعر، تحقيق: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، بدون ط، ١٤١٩هـ -١٩٩٨م، المكتبة العصرية /صيدا – بيروت.

[٢٣] الغذامي، عبد الله، النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، ط٣، ٢٠٠٥م، المركز الثقافي العربي، السعودية، الدار البيضاء / لبنان -بيروت.

[٢٤] القاضي عياض، عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي، كتاب شرح صحيح مسلم المسمى إكمال المعلم بفوائد مسلم، تحقيق: يحيى إِسماعيل، ط١، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م، دار الوفاء/ مصر.

[٢٥] القرطاجني، أبو الحسن حازم، منهاج البلغاء وسراج الآدباء، بدون ط، بدون ت، بدون د.

[٢٦] القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، شرح وتعليق وتنقيح: محمد عبد المنعم خفاجي، ط٣، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م، دار الجيل – بيروت.

[٢٧] الكحلاني، محمد بن إسماعيل بن صلاح الحسني، كتاب التحبير لإيضاح معاني التيسير، حققه وخرج أحاديثه وضبط نصه: محمد صبحي بن حسن حلاق، ط١، ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م، مكتبة الرشد -الرياض /السعودية.

[٢٨] الكحلاني، محمد بن إسماعيل بن محمد الحسني، كتاب التنوير شرح الجامع الصغير، المحقق: د. محمَّد إسحاق إبراهيم، ط١، ١٤٣٢ هـ، ٢٠١١ م، مكتبة دار السلام - الرياض.

[٢٩] المباركفوري، أبو العلا محمد عبد الرحمن، تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، دار الكتب العلمية – بيروت.

[٣٠] مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، صحيح مسلم .تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي .خمسة أجزاء. الطبعة الثالثة. ١٤٠٧ هـ -١٩٨٧ م. دار ابن كثير - اليمامة / بيروت.

[٣١] النسيسابوري، محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم، المستدرك على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ط١، ١ ١٤١١هـ – ١٩٩٠ م – دار الكتاب العلمية – بيروت .

Sources and references:

1) Ibn al-Athīr, Kitāb al-mathal al-sā'ir fī adab al-Kātib wa-al-shā'ir, taḥqīq : Muḥammad Muḥyī al-Dīn 'Abd-al-Ḥamīd, bi-dūn Ṭ, 1416h-1995m, al-Maktabah al-'Aṣrīyah / ṣydā-Bayrūt.
2) Ibn Rashīq, al-'Umdah fī Maḥāsin al-shi'r wa-ādābuh wa-naqdih, ḥaqqaqahu : Muḥyī al-Dīn 'Abd al-Ḥamīd, Dār al-Jīl, Bayrūt / Lubnān
3) Ibn Fāris, Abū al-Ḥasan Aḥmad ibn Zakarīyā, Maqāyīs al-lughah, taḥqīq wa-ḍabaṭa : 'Abd al-Salām Muḥammad Hārūn, bi-dūn Ṭ, Dār al-Jīl-Bayrūt.
4) Ibn manẓūr, Abū al-Faḍl Jamāl al-Dīn Muḥammad ibn Mukarram, Lisān al-'Arab, ṭ3, 1414h-1994m, Dār Ṣādir / lbnān-Bayrūt.
5) Abū Isḥāq al-Shāṭibī, al-Muwāfaqāt fī uṣūl al-sharī'ah, taḥqīq : 'Abd al-Mun'im Ibrāhīm, Ṭ1, 1418 H-1997m al-Mamlakah al-'Arabīyah al-Sa'ūdīyah / Maktabat Nizār Muṣṭafá al-Bāz-Makkah al-Mukarramah.
6) Aḥmad ibn Ḥanbal, Abū 'Abd Allāh al-Shaybānī. Musnad al-Imām Aḥmad ibn Ḥanbal, bi-dūn Ṭab'ah. Mu'assasat Qurṭubah Miṣr.
7) albāqlāny, Abū Bakr Muḥammad ibn al-Ṭayyib, i'jāz alqr'ān, qddm lh wa-sharaḥahu wa-'allaqa 'alayhi : Muḥammad Sharīf skr, ṭ3 1415h-1994m, Dār Iḥyā' al-'Ulūm – Bayrūt.
8) al-Biqā'ī, Burhān al-Dīn Abū al-Ḥasan Ibrāhīm ibn 'Umar, naẓm al-Durar fī tanāsub al-āyāt wa-al-suwar, khrrj āyātihi wa-aḥādīthahu wa-waḍa'a ḥawāshīhi : 'Abd al-Razzāq Ghālib al-Mahdī, ṭ2, 2003m-1424h, Dār al-Kutub al-'Ilmīyah / byrwt-Lubnān.
9) āljāḥẓ, Abū 'Uthmān, al-Bayān wa-al-tabyīn, ḥaqqaqahu : Ḥasan alsndwy, bi-dūn Ṭ, 1990 M, Dār al-Ma'ārif-Tūnis.
10) al-Jamḥī, Muḥammad ibn Sallām, Ṭabaqāt fuḥūl al-shu'arā', sharḥ : Maḥmūd Shākir, bi-dūn Ṭ, bi-dūn t, Maṭba'at al-madanī / al-Qāhirah.
11) al-Ḥasanī, Muḥammad ibn Ismā'īl ibn Muḥammad. Kitāb althyyr li-īḍaḥ ma'ānī al-Taysīr. ḥaqqaqahu wa-kharraja aḥādīthahu wa-ḍabaṭa naṣṣahu : Muḥammad Ṣubḥī ḥallāq. Ṭ1. 1433 H-2012 M. Maktabat alrshd-ālryāḍ / al-Sa'ūdīyah.

12) al-Ḥasanī, Muḥammad ibn Ismāʻīl ibn Muḥammad. Kitāb al-Tanwīr sharḥ al-Jāmiʻ al-Ṣaghīr, al-muḥaqqiq : D. mḥmmad Isḥāq Ibrāhīm. Ṭ1. 1432 H-2011 M Maktabat Dār alslām-al-Riyāḍ.

13) al-Sāʻātī, Aḥmad ʻAbd al-Raḥmān al-Bannā, Kitāb al-Fatḥ al-rabbānī li-tartīb Musnad al-Imām Aḥmad ibn Ḥanbal al-Shaybānī, Ṭ1, bi-dūn t, Dār Iḥyāʾ al-Turāth al-ʻArabī.

14) al-Saʻdī, ʻAbd al-Raḥmān ibn Nāṣir ibn ʻAbd Allāh Taysīr al-Karīm al-Raḥmān fī tafsīr kalām al-Mannān, al-muḥaqqiq : ʻAbd al-Raḥmān ibn Muʻallā al-Luwayḥiq, Ṭ1, 1420h-2000 M, Muʾassasat al-Risālah.

15) ālsywṭy, Jalāl al-Dīn ʻAbd al-Raḥmān ibn Abī Bakr, al-Itqān fī ʻulūm al-Qurʾān, qddm la-hu wʻllq ʻalayhi : Muḥammad Sharīf Sukkar al-Suyūṭī, rājaʻahu : Muṣṭafá al-Qaṣṣāṣ, ṭ2, 1416h-1996m, Dār Iḥyāʾ al-ʻUlūm – Bayrūt / Maktabat al-Maʻārif – al-Riyāḍ.

16) al-Suyūṭī, sharḥ Sunan Ibn Mājah, bi-dūn Ṭ, Qadīmī kutub khānah-Karātshī.

17) ālsywṭy, Jalāl al-Dīn ʻAbd al-Raḥmān ibn Abī Bakr, al-Itqān fī ʻulūm al-Qurʾān, qddm la-hu wʻllq ʻalayhi : Muḥammad Sharīf Sukkar al-Suyūṭī, rājaʻahu : Muṣṭafá al-Qaṣṣāṣ, ṭ2, 1416h-1996m, Dār Iḥyāʾ al-ʻUlūm – Bayrūt / Maktabat al-Maʻārif – al-Riyāḍ.

18) al-Suyūṭī, sharḥ Sunan Ibn Mājah, bi-dūn Ṭ, Qadīmī kutub khānah-Karātshī.

19) al-Ṭabarī Abū Jaʻfar, Muḥammad ibn Jarīr ibn Yazīd ibn Khālid, Jāmiʻ al-Bayān ʻan Taʾwīl āy al-Qurʾān, 1405 H-bi-dūn Ṭ, Dār al-Fikr.

20) al-Ṭībī, Sharaf al-Dīn al-Ḥusayn ibn ʻAbd Allāh, sharḥ al-Ṭībī ʻalá Mishkāt al-Maṣābīḥ al-musammá bi-al-Kāshif ʻan ḥaqāʾiq al-sunan, taḥqīq : ʻAbd al-Ḥamīd Hindāwī, Ṭ 1, 1417h, 1997m, Maktabat Nizār Muṣṭafá al-Bāz, Makkah / al-Riyāḍ.

21) al-ʻAskarī, Kitāb al-ṣināʻatayn, al-kitābah wa-al-shiʻr, taḥqīq : ʻAlī Muḥammad al-Bajāwī, wa-Muḥammad Abū al-Faḍl Ibrāhīm, bi-dūn Ṭ, 1419h-1998m, al-Maktabah al-ʻAṣrīyah / Ṣaydā – Bayrūt.

22) al-Ghadhdhāmī, ʻAbd Allāh, al-naqd al-Thaqāfī, qirāʾah fī al-ansāq al-Thaqāfīyah al-ʻArabīyah, ṭ3, 2005m, al-Markaz al-Thaqāfī al-ʻArabī, al-Saʻūdīyah, al-Dār al-Bayḍāʾ / lbnān-byrwt.

23) al-Qāḍī ʻIyāḍ, ʻIyāḍ ibn Mūsá ibn ʻIyāḍ al-Yaḥṣubī al-Sabtī, Kitāb sharḥ Ṣaḥīḥ Muslim al-musammá Ikmāl al-Muʻallim bi-fawāʾid Muslim, taḥqīq : Yaḥyá ismāʻyl, Ṭ1, 1419 H-1998 M, Dār al-Wafāʾ / Miṣr.

24) al-Qarṭājannī, Abū al-Ḥasan Ḥāzim, Minhāj al-bulaghāʾ wa-sirāj alʾādbāʾ, bi-dūn Ṭ, bi-dūn t, bi-dūn D.

25) al-Qazwīnī, alʾyḍāḥ fī ʻulūm alblāghh, sharḥ wa-taʻlīq wa-tanqīḥ : Muḥammad ʻAbd al-Munʻim Khafājī, ṭ3, 1414h-1993M, Dār al-Jīl – Bayrūt.

26) al-Kuḥlānī, Muḥammad ibn Ismāʻīl ibn Ṣalāḥ al-Ḥasanī, Kitāb altḥyyr li-īḍāḥ maʻānī al-Taysīr, ḥaqqaqahu wa-kharraja aḥādīthahu wa-ḍabaṭa naṣṣahu : Muḥammad Ṣubḥī ibn Ḥasan Ḥallāq, Ṭ1, 1433 H-2012 M, Maktabat alrshd-ālryāḍ / al-Saʻūdīyah.

27) al-Kuḥlānī, Muḥammad ibn Ismāʻīl ibn Muḥammad al-Ḥasanī, Kitāb al-Tanwīr sharḥ al-Jāmiʻ al-Ṣaghīr, al-muḥaqqiq : D. mḥmmad Isḥāq Ibrāhīm, Ṭ1, 1432 H, 2011 M, Maktabat Dār alslām-al-Riyāḍ.

28) al-Mubārakfūrī, Abū al-ʻUlā Muḥammad ʻAbd al-Raḥmān, Tuḥfat al-Aḥwadhī bi-sharḥ Jāmiʻ al-Tirmidhī, Dār al-Kutub al-ʻIlmīyah – Bayrūt.

29) Muslim ibn al-Ḥajjāj Abū al-Ḥasan al-Qushayrī al-Nīsābūrī, Ṣaḥīḥ Muslim. taḥqīq : Muḥammad Fuʾād ʻAbd al-Bāqī. khamsat ajzāʾ. al-Ṭabʻah al-thālithah. 1407 h-1987 M. Dār Ibn kthyr-al-Yamāmah / Bayrūt.

30) H-1997m al-Mamlakah al-ʻArabīyah al-Saʻūdīyah / Maktabat Nizār Muṣṭafá al-Bāz-Makkah al-Mukarramah

31) al-Nīsābūrī, Muḥammad ibn ʻAbd Allāh Abū ʻAbd Allāh al-Ḥākim, al-Mustadrak ʻalá al-ṣaḥīḥayn, taḥqīq : Muṣṭafá ʻAbd al-Qādir ʻAṭā, Ṭ1, 1 1411h – 1990 M – Dār al-Kitāb al-ʻIlmīyah – Bayrūt.